

عيسى محمود العتاق

خط

الضاحك المضحك

AL-MOSTAFA.COM

لا سبيل ! ..

وصديق القرآن الكريم : كل علم هو علم الأسماء . والله علم آدم الأسماء كلها . لأنها هي العلم الإنساني من مبدئه إلى منتهيه .

إلا أنه علم الإنسان ..

وكل علم للإنسان يعرض له النقص من بعض نواحيه ، فإذا قال لنفسه : لا بد لي من اللغة ! فلا ينسى أن يقول لنفسه : نعم . وحذار من هذه اللغة ، فإن النفع منها للعقل عظيم جد عظيم ، ولكن الضرر منها غير قليل وغير مأمون .

من منافعها أنها تحصر المارد المتطلق فتحبسه في القمقم المرصود مطيعا حيث يراد ..

ومن أضرارها أنها تحبس المردة الكثيرة في قمقم واحد . فتنتقل مرة واحدة حيث يراد واحد منها ، وتنحبس مرة واحدة حيث نريد أن نطلق منها هذا وتدع منها ذلك .

عودتنا اللغة أن نحسب كل اسم علما على شيء واحد ، وكثيرا ما يكون هذا الاسم كالقمقم الذي يحتوي فيا عشرات المردة بعلامة واحدة ، وما من شبه بينها غير تلك العلامة لضرورة التمييز والتقسيم .

تعودنا أن نسأل : ما العلم ؟ ما الفهم ؟ ما الحسن ؟ ما الضمير ؟ وتعودنا أن نسأل : كيف نعلم ؟ ما وسيلة الفهم ؟ ولماذا نحس ؟ وما بالناس نصفى للضمير ؟

تعودنا ذلك ، وتعودنا أن نجيب بجواب واحد ، كأننا نسأل في جميع هذه الأحوال عن شيء واحد .

وما نسأل في الحقيقة إلا عن أشياء كثيرة تنبئ عنها كلمة واحدة .

ما نسأل في الحقيقة إلا عن عشرين ماردا أو أكثر من عشرين ، يجمعهم القمقم الواحد الذي نشير إليه .

وفي سياق هذه الرسالة - رسالتنا عن حكمة جحا أمير المضحكين - نسأل كما تعودنا من كل كلمة : ما الضحك ؟

ولماذا نضحك ؟

وما الضحك بشيء واحد ..

وما نضحك بسبب واحد ..

وما نفكر في الضحك على نحو واحد ..

ولكنها الكلمة التي لاغنى عنها ، ولا أمان منها كذلك ما لم نعرف سر الرصد المسحور .

وها نحن أولاً في هذه الرسالة نعرف سر هذا الرصد في كلمة واحدة - كلمة الضحك - لنعرف منها أمير المضحكين بين المضحكين ، ونعرف منها أضحيكه بين أشتات المضحكات ..

الضحك ضحك عدة إذا صح هذا التعبير ، وليس بضحك واحد ونحن نضحك لأسباب كثيرة ، ولنا نضحك لسبب فرد لا يتعدد ، ويوشك أن يكون لكل حالة من حالات ضحككتها التي تصدر عنها ولا تصدر عن حالة غيرها ، كأنها هي لغة كاملة على أسلوبها في التعبير .

هناك ضحك السرور والرضا ، وهناك ضحك السخرية والازدراء ، وهناك ضحك المزاح والطرب ، وهناك ضحك العجب والإعجاب ، وهناك ضحك العطف والمودة ، وهناك ضحك الشجاعة والعداوة ، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة ، وهناك ضحك المفرور وضحك المشنوج وضحك السذاجة وضحك البلاهة ، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطراب ..

بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكات ألوان لا تتشابه في جميع الأحوال .

فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهوا بنفسه واحتقارا لغيره ، وقد يكون سروره فرحا بغيره ، لا زهو فيه بالنفس ولا احتقار للآخرين .

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس لأنه يبحث عن تلك العيوب ويستريح إليها ولا يمتنى خلاص أحد منها ، وقد يضحك من تلك العيوب لأنه يتنفس عن عاطفة لا يستريح إليها عامة بين إخوانه الأدميين ، ولا خاصة في أحد يعنيه من أولئك الإخوان .

والضاحك من عيوب السخف والحماسة قد يضحك من السخيف الأحمق أو يضحك من الذي يحكيه في سخافته وحمقه ليعرف كيف يحكيه ، وكلاهما باعث من بواعث الضحك مخالف لغيره في أثره وداعيه ومعناه ..

هذه المسألة وضعت موضع التجربة العلمية بعد انتشار الصحافة ، وتنوع موضوعاتها ، واختصاص طائفة منها بموضوع الفكاهيات والمضحكات ، وتنافس الكتاب في ابتداع فن جديد من أساليب الفكاهة والفحك ، كلما ألف القراء أسلوبا منها وسثموه أو اشتاقوا إلى غيره ، فظهرت الفوارق بين النكات التي تدعى إلى الضحك . وتمايزت بأساليبها وعلاماتها ، وأوشك الكتاب الفكاهيون أن يتمايزوا بالتصوف في كل باب من هذه الأبواب ، واستطاعوا أن يفرقوا بينها بالتعريفات أو بالحدود المفهومة . .

ولعلنا نطالب هؤلاء الكتاب بما ليس عندهم إذا سألناهم أن يرجعوا بهذه الفكاهات المختلفة إلى مصادرها من الطبيعة البشرية والعلل الفلسفية ولكننا نستطيع أن نعتمد على تجربتهم في التنوع والافتنان ، لأنه عمل يزاولونه كل يوم ، ويعرفون خفايا الانتقال فيه من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، ولم يكن هذا الاختلاف في الأساليب إلا اختلافا في التعبير والتنميق .

ومن أمثلة الاجتهاد في التفرقة بين موضوعات الضحك والفكاهة كتاب مزاج الفكاهة 'The Humour of Humour' مؤلفه إيفان ايسار Evan Esar الذي اشتغل زمنا بكتابة الفكاهيات وتقسيمها وترتيب أقسامها . وأراد بكتابه هذا من عنوانه إلى خاتمته أن يكون تطبيقا لأرائه واختياراته ، لأن العنوان نفسه يشتمل لعبا بالألفاظ كاللعب الذي يدخل في النكات الجنسية ، لأن كلمة « هيومور » بالإنجليزية تأتي بمعنى المزاج وتأتي بمعنى الفكاهة وتدل على أخلاط الجسم في مذهب الأقدمين كما تدل على وسائل تعديل هذه الأخلاط بالدواء أو بتطبيب الخواطر وتنزيه النفوس .

ولا تحصى أفانين الضحك والفكاهة كما شرحها المؤلف في كتابه ، ولكننا نشير إلى بعضها على سبيل التمثيل . ونذكر للقارىء أن يقبس عليها من تجاربه ما يشاء .

فمن هذه الأفانين « الملاحظة المزدوجة أو الملاحظة اللاذعة » ومثالها كلمة يقال عن الزواج من أجل المال : « أنه يصلح أبلا لها بسنه ، وزوجا لها بشروته » أو كلمة يقال عن البخيل : « أنه يضع نقوده في الخشبية ليجد تحته شيئا يستند إليه » .

ومن هذه الأفانين « الأبدية » أو العبارة الشاردة ، والفرق بينها وبين الملاحظات السابقة أنها أقرب إلى أمثل السائر الذي يسهل تعميمه ولا يخص أحدا بعينه . وأما الملاحظات السابقة فأكثرها يقال عن الأشخاص أفرادا بغير تعميم ويدور على شئولهم ولا يدور على المواقف والأطوار .

ومن أمثلة النكتة الأبدية أو العبارة الشاردة أن الأخلاق طلاء تمسحه الحمر وأن السن تخون أصحابها لأنها تدل على السنين . وأن الحكيم حين تقعه حكمته بأن يتزوج يصبح الأحق زوجا وله أبناء . وأن لابس النظارة « منظره بغيرها أحسن ونظره بغيرها أقيح ! » وأن الأمريكيين أحرار لأنهم « يأخذون » حريات كثيرة ! . .

ومنها اللفز ، وعماده على المغالطة ، أو على جمع التشابهات التي تختلف في الحقيقة أبعد اختلاف .

ومثاله أن يسأل السائل : « لماذا وضعوا واشتطون على تل ؟ » فيجيب الجيب : « لأنه مات » .

أو يسأل السائل : « ما ذلك الشيء الذي يصنعه الرجل واقفا وتصنعه المرأة جالسة ويصنعه الكلب على ثلاث ؟ » .

والجواب : « المصافحة أو تحية السلام عند اللقاء » .

ومن أفانين الفكاهة الجنس اللفظي . وهو يشبه اللفز في السؤال والتورية . .

يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الفلاسفة والمرايا ؟ » .

والجواب : « التأمل والنظر » !

أو يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين للكتاب والشجرة ؟ » .

والجواب : « كلاهما له ورق ! » .

أو يسأل السائل : « ترى هل يحاسب الرجل على قتل الوقت إذ حطم ساعة ؟ » .

والجواب : « كلا ! إذا ضربت الساعة أولا » .

ومن هذه الأفانين المساجلة والمحاورة . وقد يكون السائل فيها هو الجيب .

تقول لى : « لماذا تشرب الخمر ؟ » . قل لى ماذا تقترح أن أصنع بها ؟ »

وتسألني : « أى الدجاج أطول رقادا ؟ كيف ؟ ألا تعلم ؟ » الذى مات ! ..

ومنها الظن المختلف وهو يتوقف على الموقف ، وتعدد المشتركين فيه .
وجود الحبس الذى يدعو إلى اختلاف الظنون . ومثاله لصدة عن أربعة في مقصورة قطار : فتاة حسناء ، وامرأة عجوز ، وكهل فرنسى ، وضابط ألماني أثناء احتلال الألمان باريس . ودخل القطار نفقا فسمع نى المقصورة صوت قبلة وصفعة ، ثم خرج القطار من النفق وهم صامتون وعلى وجه الضابط الألماني أثر صفعة . فقالت للمرأة العجوز لنفسها : « ما أظهرها من فتاة » وقالت الفتاة الحسناء لنفسها : « هجبا له . يقبل العجوز ولا يقبلنى ؟ » . وقال الضابط الألماني : « ياله من فرنسى خبيث .. غنم القبلة ، وغنمت أنا الصفعة ! » وقال الفرنسى : « لقد نجوت بها . قيلت قاهر كفى وصفعت الألماني ، ولم يتهمنى أحد ! »

ومنها النادرة ، وهى نكتة لا بد لها من قصة تتعلق بصناعة أصحابها أو بعملهم وقواعده المتعارف عليها : كان مارك توين - الكاتب الفكاهى المشهور ، يعمل فى إحدى الصحف ، وتكاد الديون تستغرق مربيته ، وكان من عادته أن يهمل كل إنذار يأتيه من صاحب دين . واتفق يوما أن كاتباً من مساعديه كان إلى جانبه ، وهو يهم بأن يلقى بعض هذه النذر فى سلة المهملات . فنتبه الكاتب قائلاً : « انتظر يا سيدى . فإن فى ظهر الورقة كلاماً يقول فيه صاحب الدين أنه سيقاضيك إن لم تسرع إلى السداد » . فقال له مارك توين كأنه ماض فى عمله : « ألا تعلم يا صاح أن الورقة التى تكتب على وجهين تهمل فى هذا المكان ! »

ومنها الكلمة التى تقال وتفهم على معنيين . أحدهما يسر والآخر يزعج أو يخيف . وتشبهما كلمات الجنس كلما دلت على تقيضين .

يقول الرجل لزميله فى بلاد النيام نيام أكلة البشر : « أن الزعيم يريدك للغداء » .

أو يقول فرنكلين وهم يكتبون وثيقة الاستقلال : « يجب أن يتعلق بعضنا ببعض وألا تعلقنا على انفراد » .

أو يقول الشيطان : « الفضيلة فى الوسط » . وهو يجلس بين رجلين من رجال السياسة !

أو يقول قذح الماء للبرشامة : « تقدمى وأنا بعدك » .. وفيها مثل لظاهر الشحية وباطن الاشتراك فى الجلاء !

أو تقول الفتاة لمن يغازلها : « أنا كالثاقرة .. إن كنتى صرخت ! »

وما أحصاه الفكاهيون المعاصرون من أساليب التعبير الفكاهى أسلوب القلب والعكس . ومن أمثلته : « أن الحب يذهب بالزمن وأن الزمن يذهب بالحب » ومنها : « أن بعضهم يحب أن يشاهد الصور المتحركة . وبعضهم يشاهد الصور المتحركة ليحب » ومنها : « أن الإنسان يخلق المتاعب وأن المتاعب تخلق الإنسان » ومنها : « أن من يتعمق إلى أساس الأمور ترفعه الأمور إلى الذروة العليا » ومنها : « ليس الضحك بداية سيئة للصدقة ولكنه نهاية حسنة » .

وتكرار الكلمة فى مواضعها فن من فنون الفكاهة . كتكرار ذكر الذكاء فى هذه العبارة :

« الفتاة الذكية أذكى مما يبدو عليها لأن الفتاة الذكية لا تبدي ذكائها » .
أو هذه العبارة : « غير المتوقع يقع أحياناً حين لا تتوقع من المرء ما هو خليق أن يقع منه » .

أو هذه العبارة : « علينا أن ننسى أنفسنا لنشعر بالسعادة . ولكننا لا نسعد إذا نسينا أن ننسى أنفسنا » .

والنسيان المعهود فى العلماء والمعلمين يضحك أو يحسب من أسباب الفكاهة . وتروى لذلك قصص كثيرة هذه أمثلة منها :

« جلس أستاذ فى مكتبه بالمنزل وهو فى قلق شديد على زوجته التى أدركها الخفاض . وإذا بقريبة له تقتحم المكتب لتبشره بولادتها وتصبح به : « إنه ولد » .. ويكون قد ذهل عما حوله فسالها : « وماذا يريد ؟ ! » .

وذهب أستاذ إلى طبيب فقال له : « اخرج لسانك » ثم قال له : « لسانك فى حالة حسنة ولكن ما هذا الطابع الذى عليه ؟ » . فابتسم الأستاذ وقال : « أهو هناك وأنا أحسنى وضعته على الغلاف ! » .

وأكثوبة إبريل وما جرى مجراها فن من هذه الغنون الفكاهية . يقول مارك

فتقول زميلة وهي تصنع الجدي الجواب : « هذا الذي نسميه مبالغة في إحياء الأفراح »
وتبدأ سيدة من زميلتها المؤلفة فتسألها : « من انذى ألف كتابك الأخير ؟
إنه بديع »
وجواب المؤلفة من جنس السؤال : « سرني ونله أنه أعجيك . من الذي قراه لك ؟ »

وتعد « المقالب » من يواعث الضحك . وهي الأكاذوبة التي توقع السامع في بعض الغرم أو بعض التعب . دون أن يصحيا ضرر اليتم . والمبالغة فيها كاختلاق أخبار النعمى . والاعتدال فيها كالدعوة إلى وليمة . ولا وليمة ! أو تقديم أخبار وفيها دواء .. غير مطلوب .

ومن الفكاهة اتباع الحكمة بحكمة أخرى توافق مقدماتها ولا تخطر في الحسبان . ومن أمثلتها أن الألفة في الحب تولد الاحتقار .. والأطفال . وأن الفتاة التي تشبه الكتاب المقروء توضع مثله على الرف . وأن تفاحة في اليوم تبعد عنك الطبيب . ولكن بصلة في اليوم منعولها أكيد .. تبعد عنك كل إنسان . وأن اثنين لا زمان للشجار . ولا زمان أيضا للزواج . وأن المال يتطق . والمال يخرس !

والسخرية أحد هذه الألوان . ومن السخرية أن يقول القائل جادا كأنه يعني ما يقول : ما بال فلان ينتقم مني كل هذا الانتقام ؟ إنني لم أحسن إليه كل هذا الإحسان ؟

وذهب فتى إلى شباك البريد . فوجد الموظفتين في شغل عنه بحديث طويل عن زى فستان السهرة الذي كانت تلبسه إحداهما . فتألق الفتى في الوصف والرجاء . وطلب إلى إحداهما أن تنفضل بأعطائه طابعا قرمزي الوسط وردى الخافة منقوش الأطراف والجوانب . ومشغولا كله ولا يساوى مع هذا أكثر من ثلاثة مليعات !

والحاكاة باب من أبواب السخرية . تتشابه الأمثلة عليها . ويدخل فيها التهكم والمجارة .

خلا أحد المدعوين بإحدى المدعووات في سهرة الرقص فقبلها . واستجابات

لقبلته لحظة غير قصيرة . ثم قالت له بعد أن افترقت شفتاها وشفتاه : « أتعلم إنها أول قبلة رضيت بها في حياتي ؟ » فقال الفتى كأنه يجاريها : « نعم . لأنك على ما يظهر ورثت الشيء الكثير بغير تعليم »
وتحدث بعض الجلساء في دعوة عامة عن الثروة ووسائل جمعها . كأنه يومهم السامعين أنه من أصحابها . فأنثت إحدى الجالسات على سرعة قيمه . لأنه يعرف الكثير عن الكاسب مع قلة ما يكسب !

والنصائح المطردة . مع القياس الظاهر . مع استحالتها بعد التأمل اليسير . حد هذه الأقسام التي اصطالحوا على تقسيمها في الصحافة الفكاهية . ومن قبيلها هذه النصائح :

قل لا لمن يهتمون بالزواج .

وقل لا لمن يهتمون بالطلاق .

وقل لا لمن يهتمون بالموت .

وقل لا لمن يهتمون بالولادة .

ويتحشى على أسلوب هذه النصائح الهازلة جواب وجل أصيب بالزكام وأشار عليه صديق بوصفة ناجعة . فقال له : « نعم : اليوم أعمل بوصفة جونس . وغدا بوصفة سميث . وبعد غد بوصفة براون . فإن بقيت مني بقية لوصفتك يوم الأحد فهو دورك !

وقد تطرد الوصايا التالية مع هذا النسق من النصيحة :

« لا تطرد الذبابة من جبهة امرأتك بمطرقة !

« لا تقلق إذا علمت أن كل شيء يذهب في الغسيل . حتى البذلة !

« لا تنتفخ وأنت تعلم أن الصفر أسمن الأرقام !

« لا تحمل هم الزبدة . إنك تصنعها من حشائش الأرض . متى تيسرت البقرة !

« لا ترد في بذل النصيحة . لا أحد سيسمعها

« لا تعمل بنصيحة . وأولها هذه » !

وعندهم فكاهة يسمونها فكاهة « قبل وبعد » مدارها على المقابلة بين هذين الطرفين في مسائل الزواج على الخصوص . وهذه أمثلة منها :

« قبل الزواج تقبل الفتاة الفتي لتربطه . وبعد الزواج تربطه لتقبله . »

« قبل الزواج يأخذ الرجل بيد المرأة حيا . وبعد الزواج يأخذ بيدها دفاعا عن النفس . »

« قبل الزواج يقول الرجل لا بد أن ينفذ أمرى فى منزلى أو أعرف السبب . وبعد الزواج يعرف السبب ! »

« قبل الزواج يسمى الرجل إلى المرأة . وبعد الزواج يسمى للمرأة ! »

« قلما يكون الرجل بالمرأى التى تراها فيه المرأة قبل الزواج ، وقلما يكون بالعيب التى تراها فيه بعد الزواج . »

« فى بعض البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل الزواج . وفى البلاد الغربية لا يراها بعده ! »

ويلحق بهذه الزوجيات تهكم المحدثات والمحدثين من بنات « الدقة القديمة » كما يقال فى مصر باللغة « البليدية » . . . ومنه أمثال هذه المقارنة :

« البنات من الدقة القديمة تحمر إذا خجلت . وبنات العصرية تخجل إذا احمرت ! »

« والبنات من الدقة القديمة كانت تذهب إلى المدينة وتقف عند جماعة الشابات المسيحيات . أما بنات العصرية فإنها تذهب إلى المدينة ولا تقف عند شىء ! »

« والبنات من الدقة القديمة كانت تشعر بالإهانة إذا عرض عليها الشراب . وأما بنات العصرية فتبلع الإهانة . »

« والبنات من الدقة القديمة كانت لا تجسر على تناول يد فتاة . ولكن بنات العصرية لا تجسر على تركها . »

« والرجل من الدقة القديمة له رأس يصلح للحسابات . ولكن ابنه العصرى له عين تنظر إليها ! »

وهم يصطلحون على تسمية إنسان مشهور ينسبون إليه الحكمة التى يخشعونها لساعتها . من قبيل قول الشرقيين « قال الراوى » عند إسناد الكلام الذى يعلم السامعون أنهم مخترعوه .

وأشهر هؤلاء الحكماء المختارين لإسناد الصادق والمدعى حكيم الصين كونفشيوس .

ومن كلامه المزعوم . قال كونفشيوس : « الرجل الذى يسوق بيد واحدة يعظم بالكثيرة » .

وهم يعنون بذلك خطر الزواج . لأن الرجل الذى يسوق بيد واحدة يخاصر المرأة معه فى سيارة باليد الأخرى .

ومن كلامه المزعوم . قال كونفشيوس : « الفتاة التى لها مستقبل تحذر الرجل الذى له ماض » .

ومن كلامه : « الرجل الذى يغازل المرأة على المصعد ليس فى مستواها ! »

ومن الأضاحيك ضرب المزاح الفارغ الذى يشبه ما يسمى فى الرجل العريس الحديث بالدور المجنون .

يسأل السائل محدثه : « ألم أرك فى بلدة بقالو ؟ » .

فيجيبه محدثه : « لم أذهب قط إلى تلك البلدة » .

ويعود السائل فيقول : « ولا أنا ! » .

ويجربى الحوار بين اثنين على هذا المنوال :

« ماذا تصنع ؟ »

« أبحث عن ورقة ضائعة . »

« أين سقطت منك ؟ »

« فى الشارع الثامن والثلاثين . »

« نكتنا فى الشارع الأربعين ! »

« نعم . أعلم ذلك . ولكن هنا نور ! »

وحكمة التى « بفلت » منها درسها محسوبة فى هذه الأضاحيك :

تقص المدرسة على الأطفال قصة الحمل الذى لم يسمع كلام أمه فأكله الذئب ، فيقول أحد الأطفال فى براءة أو فى خبث : « والحمل الذى سمع كلامه أكلناه نحن ! »

أو يقول المدرس لتلاميذه الصغار : « إن العصفور المبكر يلتقط الدودة . . »

فيقول أحدهم : « والدودة المبكرة يلتقطها العصفور » !

ومن المفيد أن نلاحظ هنا أن هذه « التقسيمات » لا تبدو غريبة للقارئ العربي الذي ألم بعلوم البيان والمعاني والبديع ، لأن الكثير منها مقدر بتعريفاته وأمثاله وشواهد في تلك العلوم ، ومن قارئ عربي ألم بعلوم البلاغة بعض الإلزام إلا وهو يعرف التورية والقفالة والمشاكلة . والبهزل الذي يراد به الجذ ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم . وتجاهل العارف . والإضمار في مقام الإظهار ، وإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، والتشبيه الملفوف والمفروق ، والفصل والوصل . والقلب والالتفات والتغليب . والكناية والتحريف والتصحيف .

كل هذا مألوف للقارئ العربي من بلاغة لغته ، كما يألّف من كتب الصناعة اللغوية جميعاً محكم القول في جوامع انكلم والفرائد والأوابد والمثل السائر واللمح الذي يحسب من الألفاظ ، والألفاظ التي تحسب من ضروب الرمز أو الإيهام والتعمية .

إلا أننا لم نشأ أن نطلق هذه التقسيمات والتعريفات على ضروب الفكاهة المصطلح عليها بين المشتغلين بالكتابة الصحفية وما إليها ، لأن مصطلحات الصناعة اللغوية وضعت في لغة العرب لتمييز درجات البلاغة ومعانيها ، ولم توضع هذه المصطلحات الحديثة عند الغربيين لشيء من ذلك وإنما وضعت للترقية بين موضوع وموضوع من مادة الصحافة الفكاهية .

وأمر آخر يباعد بين هذه المصطلحات الحديثة وبين مصطلحات علوم البلاغة العربية . وذلك أن المصطلحات الحديثة لفنون الأصاحيك لم تزل على فجاعتها الأولى ولم تبلغ بعد من الدقة في الأسماء والتعريفات والشواهد مبلغ نظائرها في علوم البديع والمعاني والبيان . وقد يختلط بعضها لاتفاقه في مصدر الشعور وأثره فلا يتم التعريف بينهما إلا بحكم العادة بين المشتغلين بعمل واحد يعرفون مواد وأجزاءه بالإشارة والنقطة العابرة ولا يلزم أن يقيموا الحدود بينها بالفواصل المنطقية أو النفسانية .

على أن الاختلاف بين عناوين الفكاهات - ولو بحكم العادة - جدير أن نتوقف عنده وننظر ما يليه من التعريفات والتقسيمات التي ترجع إلى اختلاف في أصول الموضوعات أو اختلاف في طبيعة الشعور . وسوف يأتي الوقت الذي نميز فيه بين ضحكة وضحكة كما نميز بين كلمة وكلمة ، ونعني

بذلك تمييز الفهم والتفسير ولا نقصر الأمر على الشعور والتلبية النفسانية ، فإننا الآن نميز بشعورنا بين ضحكات مختلفات كما كان آباؤنا وأجدادنا يميزون بينها بتبادل الشعور والتلبية بين نفس ونفس . وليس هذا ما يعنيه طلاب التمييز بين أفتان الفكاهات والضحكات في الدراسات العصرية ، سواء قصدوا من هذا التمييز تيسير العمل بين المشتركين فيه كما يتيسر للعاملين في حانوت واحد أن يميزوا أنواعه بحرف مرقوم على الرف أو علامة منقوشة على الصندوق ، أو قصدوا من هذا التمييز أن ينفذوا إلى ينابيع الشعور المتعمقة في النفس البشرية ، حيث تصدر المضحكات والمبكميات وتكمن أسباب الغرائب والمألوفات ، وما ينبغي لنا أن نزعج أنفسنا لفهم نفوسنا حق فهمها ونحن نجعل الفرق بين ما يضحكها وما يبكيها وما يقع منها موقع الألفة أو موقع الغربة في أعماق الأعماق . .

وربما كان اسم « الضحك » مغرباً بالاستخفاف منافياً للجد في بواعثه ومعانيه . .

ولكن البحث عن أسباب الضحك جد كأصدق الجد الذي يعرفنا بنفوسنا كما يعرفنا بها أعظم العظام وأفدح الحزونات . بل ربما كان الأمر « الحزن » يسير التعليل لأننا لا نحار فيه ولا يخفى علينا أنه يرجع إلى حب السلامة وكراهة الضرر والإصابة . وربما كان لنا نحن الأدميين شركاء في الشعور بالحزونات بين الحيوانات العليا وبعض الحيوانات الدنيا . لأن الحزن عندها بمثابة رد الفعل الجسداني لكل ألم وكل مكروه . أما الضحك فليس من سهولة التفسير بهذه المنزلة . ولا سيما الضحك الذي يتشعب ويتفرع وتتباعد مصادره من النفس أو تتقارب - مع التفرقة بينها في الأسماء - حتى يلتبس موضوع منها بموضوع وعنوان بعنوان . .

هذه عوارض نفسية يختص بها الإنسان ولا يشاركه فيها حيوان من الحيوانات السفلى أو العليا . بل يعتقد الكثيرون من علماء الأجناس البشرية أن القبائل البدائية من الناس لا تضحك ولا تدرك الضحك . وأن هذه الظاهرة المتبقية في سلم الإنسانية لا تضحك ولا تدرك الضحك . وأن هذه الظاهرة المتبقية في سلم الإنسانية لا تشاهد بين الهمج إلا بعوارض العصبية التي لا تدخل في حيز الإرادة . كأنها ضحكة المفرور أو ضحكة التشنج . وحتى هذه الضحكات التي تشبه العوارض المرضية لا تشاهد بين الهمج على كثرة

جعلهم يلتفتون إليها ويسمونها بكلمة من كلماتهم القليلة . فهي والتخبط من الصرع عندهم سواء .

لا جرم يجد الفلاسفة غاية الجهد في النظر إلى الضحك وأسبابه منذ عهد
... ولا يجدون اليوم وغدا في هذه الدراسة بين نفسائين واجتماعيين
... للفك والاداب .

وتحس في هذه الرسالة نريد أن نعرف « جحا » ونريد أن نعرف الإنسانية
كلها بهذه المعرفة .

وربما كان بعض ما تقدم من التعريفات مفيدا لنا في وضع جحا بموضعه من
الحياة الإنسانية حيث كانت في كل مجتمع وكل حقبة وكل عنصر وكل
فيل . فإن بعض هذه التعريفات يرينا أن « جحا » ليس بالغريب المجهول في
بيئة من البيئات التي تضحك كما نضحك وتستغرب من نوازل جحا ويؤاخره
ما نستغرب . وبعض الأمثلة التي تقدمت نستطيع أن ننسبها إلى جحا فلا
تختلف في معذتها ما ينسب إليه . وهذه إحدى العلامات على سريان
الضحك مسرى اللغة بين بني الإنسان . فهو كاللغة يؤدي لجميع الناس
معاني مشتركة يتقاربون بها على تباعد المنازل والأجناس . وهو كاللغة
يختلف بين وطن ووطن وبين جنس وجنس . كما يختلف بين قائل وقائل
في مناهج التعبير بين المتكلمين بلسان واحد في أسرة واحدة .

وستعرف « جحا » حقا حين نعرف لماذا يضحك الناس عامة بغير
اختلاف . ونعرف لماذا يضحكون خاصة من شيء دون شيء . ومن إنسان
دون إنسان ..

وستجد « جحا » واحدا ولكنه « جحا » الناس أجمعين . لأن الناس
أجمعين يضحكون منه وإن لم يظهر في غير موطن واحد أو مواطن متشابهة
تحت كالأوطان الواحد . لأن الإنسان حيوان ضاحك حيث كان . ولعله
ضحك آلاف السنين ولم يفهم بعد أسباب الضحك على جلينتها . وسرى -
بعد - مقدار ما فهمه ويفهمه .

وستضحك من بعضها وهي صحيحة أو باطلة . فنتعلم من الضحك كيف
تلقى تلكم الأسباب .

لماذا نضحك ؟

بعض الناس يحبون المتعة ولا يهتمون لماذا يستمتعون بها ، وبعضهم تتم
متعته بها إذا عرف أسبابها .

قلت في الكلام عن سارة وهمام من قصة سارة : « تتسرب إلى المنزل
أنباء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة في معظم الأيام ، فيقرآن أو يسمعان
بعض الأغاني ، أو يلعبان الدومينة قليلا ، وهي لعبة تحذقها سارة ، ويعتقد
همام أنها أصح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة .. فالشطرنج والضامة يعولان
على الحيلة ، وكل شيء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والترد يعول على
المصادفة والذكاء ، وكل شيء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق إما مصادفة
وإما صراع قلما يشبه صراع الحياة .. أما الدومينة ففيها حساب للمصادفة ،
وفيها حساب للتدبير ، وفيها حساب لليقين ، وفيها حساب للظنون ، وفيها
حساب للغيب الذي تجهله أنت وخصمك ، والغيب الذي تجهله أنت ويعرفه
خصمك أو يجمله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشاء . ولها
قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما في يدك .

« قالت سارة يوما ، بعد ما استعادته شرح فلسفة الدومينة للمرة الخامسة
أو السادسة أو السابعة : « أولا تستمتع بشيء إلا أن تكون له فلسفة » ؟

قال : « لا . أنا استمتع بالشئ ثم أبحث عن فلسفته ، وأنتى لأبحث
عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولهواته ، كي
لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه ، فأحسه وأعمله وأذكره
وأفكر فيه وأستقصى معناه . »

وأقول في صدد البحث عن أسباب الضحك أنني أشبه هماما هذه
الخلقة . وأنتى أحب أن أفهم ما أحسه وأن أحس ما أفهمه . وأنتى جريت
على ذلك في البحث عن أسباب الضحك منذ بدأت الكتابة وتدوين الخواطر
والأفكار بين الخامسة عشرة والعشرين . ولهذا أذكر هذه العادة فيما نحن
بصدده . لأننى إذا مررت بما اعتقدته من أسباب الضحك قبل العشرين وبعد
العشرين وفى خلال النظر والمطالعة والتجربة اليوم - تدرجت بهذه الأسباب
فى أطوار طبيعية تعين على المقارنة والتنقيح ولوصول إلى النتيجة ..

كنت في نحو السادسة عشرة مفكرة يومية أدون فيها حواطري
... من جمعتها بعد ذلك باسم خلاصة اليومية وحدثت منها عند الطبع
... حصصات التي ترتبط بشك حواصر لا أذكره الآن

في ف. حسب منها عن مسجحات نشر في منقحها بالسطح
مصبغة . ولكني لاحظت فيها أن المصححات أكثر من صحب وكتب به
المنى في الصفحة السادسة عشرة من النسخة المطبوعة

إن المصححات ليست بالقليلة . ولكن الذين يحسنون صناعة المصحك
هم التلويح . وليس من الضروري أن نفتش عن الرجل من أمثال موليير
... من المصحك . فإن في كل رجل من الذين نراهم ونعائسهم موطأ
المفص . وفي كل عمل موضعاً للكلمة والتمنع . . . والدواع الساعية اليها . ولو
... مفسر بالشعء ذلك الرجل الذي يعرف كيف يفض إلى سوس العزور
والرياء من أعمال الإنسان . فإنه لا يطلق فمه مادام يفتح عينيه .

وهنا كنت أقرن أسباب المصحك بملاحظة النقص والادعاء والغرور والكلفة
التي يحاول صاحبها أن يحدع الناس عن الحقيقة . وهي واضحة لمن يلتفت

ولا أذكر أنني تحررت الترتيب عند طبع الحواطير والمفكرات . ولكني أجد
في الصفحة الثالثة والأربعين هذه الخاطرة عن المصحك . وفيها أقول إن
«المصحك هذه أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الاعتباط بأنفسنا .
أما ب. نحس من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي نكتشفه في سوانا .

« ولما كان الإنسان لا يضحك إلا سرورا برجحانه فهو يضحك في الأحوال
التي رجحانه فيها معروف غير محدود . فالرجل المعروف المكانة يضحك
من تصرف الصعلوك الوضيع وإن كان مضحكا في ذاته . إلا إذا كان يستخر
من أهل صفة لياهي بضفته أو من أهل ملاد لياهي ملاده .

« وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لا يمال وحده .
فلما كان ملوك أوروبا وأمراؤها وسواسها وقوادها محتتمين في سنة ١٨١٥ في
فيينا وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة على بونايرت وقد جلسو يصلحون ما
أفسده ويعيدون ما درسه من معالم أوروبا . أعلن في المجلس . . أن الرجل قد
أفلت من حزيمة السا وأنه قد عاد ثانية إمبراطورا على فرنسا . فبحموا هبة
ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأنما يقول كل منهم : إن هذا
الكورسيكي لم يعبت بي وحدي ، بل عشت بنا جميعا .

ويلى هذه الخاطرة عن المصحك خاطرة عن البكاء قلت فيها إن الإنسان
« يبكي لعبير ما يضحك له : يبكي حين يظهر به النقص والعجز طهور لا
مسيل إلى لمداجاة فيه . يبكي في الموضع التي يشعر نديها بالقيهر التام
وتحقق له تحرده من الحول والقوة حيالها .

« في تلك الموضع يقول المسلم متمثلا : لا حول ولا قوة إلا بالله . كأنه
لا يريد أن يكون ضعيفا إلا أمام الله الذي يتساوى الناس عزيزهم وذلهم في
الضعف أمام حوله وطوله . والأطفال المستضعفون أكثر الناس بكاء لأنهم
أدعم اقتدارا . . على أن عدم البكاء لا يفيد في أكثر الأحيان القدرة على دفع
سبب . فإن من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن السكء ويتكفب الجلد
والسكون حتى في الفجائع القادحة كأنهم يابون الإقرار بالانقهار على كل
حال .

المصحك والبكاء نقيضان

في هذه الخاطرة حسبت أن المصحك والبكاء نقيضان . وأن الإنسان يبكي
لغير ما يضحك له . ومدار المصحك والبكاء معا على الغسطة بالنفس أو
نقيضها ، فإذا اغتبط الإنسان بنفسه ضحك وإذا شعر بالمهانة والنقص
بكى

وبست هذه المفيدة بالصحيحة في جميع نوحياها . نحن لا بضحك
كل شيء لا ييكينا . وقد يكون الشيء مضحكا وميكيا كما يقول أبو الطيب .
وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

والأصح أن المصحك لمة تعبر عن كثير من الحالات كما ندمنا في الفصل
السابق . وليس من اللازم أن يقابله البكاء في كل حالة . وقد قال الشاعر
بيرون وغيره : « أنتي أصحك لكي أبكي » . كأنما يقولون إن المصحك بدل
من البكاء في بعض الأحوال . وبشبه هذا من بعيد قولنا في تلك الخاطرة أن
بعض الناس يتكلفون الجلد والسكون حتى في الفجائع القادحة كأنهم يابون
الإقرار بالانقهار

ويقول إنه شبه بعيد . . لأن الذي يضحك « لكي لا يبكي » يضحك حما
ولا يتكلف الجلد . بل يفسر على المصحك لأنه يكشف من أسبابه ما ليس
يكشفه غيره . أو لأنه يوسع النظر إلى المسألة ولا يحصرها في أصيق حدودها .

وهو صاحبك لأسباب أوسع من الأسباب التى تبكى غيره . وإن لم تتناقص هذه ، سبب وتلك الأسباب .

• كان آخر ما دونته فى خلاصة اليومية عن الضحك كلمة فى الصفحة ١٠٠ . من . فحوار أن قوة الاستحسان فى الذهن لها شأن فى شئ . فضحكك وغيرها . . . فمن أهل هذا الخطر السريع من تبع به قوة الاستحسان أن يستحضر أمرا مضى فيضحك أو يبكي كما كان الأمر قد وقع له فعلا فى ذلك الحين . . .

وفى ختام هذه الحاضرة أقول إن « الرحمة ليست إذن حيلة اخترعها المتمدن لمصلحتهم كما افترض النيتشيون . ولكنها طبيعة من طائعات النفس فيها بينة وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الإنسان لا يركب ما يشبه بالشيء . وذلك ما لم يصل إليه الحيوان » .

• فحوى هذه الآراء فى مجموعها أن الشعور بالضحكات والخزانات ملكة إنسانية وجدت فى الإنسان ولم توجد فى الحيوانات لأنه يدرك المشابهة ويحس بالتعاطف ويستدعى الخواطر من قريب أو بعيد .

منكة السخرية

ولست أحصى تطور هذه الآراء خلال الفترة التى تلت طبع « خلاصة اليومية » سنة ١٩١٢ .

ولم أقصد خلال هذه الفترة إلى كتابة شئ أبسط فيه القول عن أسباب الضحك فى عمومها . وإنما كنت أعود على الموضوع كلما استدعاه التعقيب على مسألة تمت إليه . كسخرية أنى العلاء والصور الفكاهية فى المرأة من نكيف الأستاذ عبد العزيز البشرى رحمه الله .

فابتدأت القول عن ملكة السخر عند المعرى سائلا : « لم يسخر الإنسان ؟ » ثم أجبت قائلا : « إنه ينظر إلى مواطن الكذب من دعاوى الناس فيبتسم . وينظر إلى لجاحهم فى الطمع وإعانتهم أنفسهم فى غير طائل فيبتسم . وهذا هو العبث . وذلك هو المرور .

• فالعبث والمرور بابان من أبواب السخر . بل هما جميع أبوابه كافة . وكل ما أصحك من أعمال الناس فإنما هو لون من ألوان المرور أو ضرب من ضرب العبث ، وكثيرا ما يلتقيان . فإن المرور هو تجاوز الإنسان قدره والعبث

هو السعى فى غير جدوى . ولا يكون هذا فى أكثر الأحيان إلا من اعتزاز من المرء بنفسه وتعد منه لظوره .

• والبأس يعلمون ذلك بالبداية . فهم يعلمون أن المرور والعبث مادة الضحك وجوهرته التى يتفرع منها كل مضحك من الأعمال والأقوال . • جريون ذلك كل يوم فى مداعباتهم لصغارهم واستحسانهم لقوة أطفالها . يقبض الرجل كفه لابنه الصغير على غير شئ . فياحده بأن يعتجها ويعدده بكل ما يجد فيه إذا هو قوى على فتحها ، فيجاهد الطفل فى ذلك ما يجاهد : يقوم ويقعد ، ويشد ويحتد ، ويلتوى ويعتدل . ويرفع أصبعه بعد أصبع ، فإذا الذى رفعه قد عاد فأطبق مرة أخرى ، ويعبى الجهد فيركب على الملأ والخذعة ، وهو فى كل هذا يحسب نفسه قادرا على أن يعطب أباه عبوة وقسرا لو يعلمه خديعة ومكرا ، وهذا هو المرور .

• ثم تلين تلك القبضة فيفتحها فإذا هى خاوية وإذا بذلك العناء الذى أجهده وبهره قد ذهب سدى ، وهذا هو العبث ، ومن هذا وذاك تضحكنا الطفولة وتمجينا غرائها وكرباؤها وتتخذها تسلية ولها . ولكن هل يصحكا من الكبار شئ غير هذا ؟ وهل مهارل الحياة ومسائر التمثيل إلا صورة مكبرة من هذه اللعبة الصبائية وسداجة مركبة من هذه السداجة البسيطة ؟

• وإذا كان هذا معدن السخر وأصل الدعاية فما أجد رجلا كصاحب رسالة الغفران أن يكون ساحرا ؟ بل ما أجد له عمل فى الحياة غير السخر ؟ إنه رجل استمتع بالحياة جمعاء ، وهانت عليه الدنيا بما وسعت ، فما من دعوى من دعاوى الناس تنزعه عن المرور فى اعتقاده ، وما من غاية من غايات الناس لا تنتهى فى تقديره إلى عبث فارغ وخديعة ظاهرة : كلهم مرور وكلهم عبث متعلق من الأقدار بمثل تلك القضية التى يعبى أن يقبض أصبعها منها . . . حتى إذا قبضها أو خطر فى وهمه أنه قبضها لم يجد ثم شيئا . أو وجدها ملأى بما يشبه الفراغ سخية بما ليس يختلف عن الحرمان . وكلهم محتقب عبث لا تجمع ومتقلد سلاح لا يصيب :

ورب كفى يحمل السيف صارما

إلى الحرب والأقدار تلهو وتسخر

لا . بل هبه وصل بسيفه الصارم وقائل وخمر وسلم ، فمادى عساه يغنى ؟

الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك

وقبل أن نأخذ في تحليل آراء افلاطون وأرسطو لاسي من السابقين لهما
من أعلام الفلسفة القديمة اسمين من تصنيف كبري كلاًهما مادة من مواد
البحث وساعد من الشهود التي يسوقها شعور سعريته وتقسيماته
وهما الفيلسوف ديمقريطس والفيلسوف هيرقليطس المولود في القرن الذي يليه .
فالأول كان يلقب بالفيلسوف الباكي لأنه كما زعموا كان دائم البكاء
لأنه عيب ولا يتسم له ثمر ، ولا يزال ناعياً على قومه ما صنعوا وما
صنعوا من أمورهم العامة والخاصة .

ونسي كان يلقب بالفيلسوف الضاحك لأنه كما زعموا كان دائم الضحك
لا يكف عن الابتسام أو القهقهة ولا يكره خض من خطوط حل أو هاد
وقد قال حورس الشاعر اللاتيني الساحر أن العجب لهيرقليطس أعظم من
العجب لرملة . في دوام الضحك - ضحك أو مكلفاً - لا يشق على أحد يريده
، وأما العجب منه فمن ذلك الفيلسوف الذي يجد في عينه معيلاً لا يغيب من
السموع ويحزن جداً أو يتكلف آخر تمثيلاً ولهواً حينما وجد مع الناس .
والفلسفة كلها « مزدحمة » بشواهد الضحك ومعارض البحث في حقائقه
وأكاذيبه ..

فمن الرجال يا ترى أدعى إلى الضحك عند الناظرين إليه ؟ ..

أنضحك من دائم البكاء أم نضحك من دائم الابتسام والقهقهة ؟

يحبيل إلى الأكثرين أن الرجل الذي لا يقطع نكاؤه أدعى إلى الضحك من
الرجل الذي لا يقطع ضحكته وابتسامه . وأنها - بعد - موضوع صالح جداً
للدعابة والسخرية .

وأول ما يرد على ذهن من أسباب ذلك أن الضحك الدائم والبكاء الدائم
كلاهما غير معقول .

وهنا تذكر أن الإنسان حيوان ناطق وحيوان ضاحك . وأنه استأثر بأسطق
الضحك ، لأنهما مقايسان مشتركان للعقل وللمعقول . وهذا يذكر أيضاً
- السكتة وسيلة لإظهار الخلل المنطقي وإن كان الفرق بينهما أن السكتة
- حدث يظهر خلل وأن الدليل المنطقي يسترسل في إظهاره بغير معاجة

ثم يرد على ذهن أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما يطرأ وخروج
من الجسد إلى ما عداه ، وما عدا الجسد يلتقي بالضحك ويرى في بعض
تصريف

وغنى عن القول أن الفيلسوفين لم يكونا على الصفة التي نعلمها من كلمة
الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك ، وأنهما تعرضا في
الوصف لأنهما مبالغان أراد الناس أن يكشفوا هذه المبالغة فهدموا بها إلى
عينها المستحينة ، وصعد لها بذلك نصف صورة هزلة . الصور التي
يتعمد فيها الرسامون الفكاهيون إبراز الملامح الشاذة بتكبيرها والخروج عن
جميع مألوفاتها .

ولقد كان هيرقليطس يترجم عن سخطة أحياناً بحركات من به ليست
من البكاء ولا الحزن في شيء . فكان يلعب مع أطفال - شيوخ
فيجيبهم بأن الأطفال أغفل منهم في تدبير اللعب ، أنهم يصعوا في
الأعيانهم ماصعه الشيخوخ المحكون في أحق الأمور بالجسد والرصانة

وكان ديمقريطس يسبح في الأرض من بلاده إلى مصر والشمسة وفارس
والهند وكل قطر معمور . وكانت الدنيا على أيده قائمة . تهون فيها
مصائب الأحاد إلى جانب المصائب التي تحيق بالدول والشعوب ، فكان
يضحك من أولئك الذين يستسلمون للأحزان ولا يعترضون ، حولهم من
عادات الرمن وصروفه حيث ارتحل وحيث أقام ، وفيه من بواجر حراته
بالسخرية أنه جترأ بها على « دارا » حمار القوس وهو يسبح في بلاده . فإن
هذا الجبار أحزبه أن تموت له جارية يحبها فوعده ديمقريطس - إحيائها بعد
دفنها ، وقال له أن الأمر لا يتطلب أكثر من كتابة ثلاثة أسماء على القبر
فتعود الجارية إلى الحياة ، وسأله « دارا » في لهفة : «وما تكون هذه الأسماء ؟
فأجابه الفيلسوف وهو يصطنع الجدة : «أسماء ثلاث لم يه «لما أحدا من
الأعزاء» .

وكان هذا هو العراء .

ولاريب أن البديهة الإنسانية كانت من قبيل الحديد لا . بل الحديد .
فهو التي لقي منها الفيلسوف جرهما من حس العمل . حر كلاهما من
قومه فأرسله قومه في التاريخ على ذلك « الكارميكتور » . صاحبك دائم
الضحك وبالك دائم السكاه .

وهذا أيضا باب من أبواب المضحكات التي انطوت عليها قصة الفيلسوف :
 من الصورة البولية أو الكاريكاتور .

ثم يحى الشاعر الساحر جوفنا فيمض باختياره عن هذه المبالغة لأبها
 ، ، القافاة كما نقول في الحكمة العربية ، وما من شاعر ساحر أن
 يحسن منه هذين المصورين ثم يزدحم في سواء أحسنه ليصيح منه الخيال
 فصالح لتلهم على الموصوفين والواصفين .

شبهة الصحت

عنى أن هذين الفيلسوفين المضحكين قد قد فسده الصحت من سرتهما
 ورسمهما بر دلم تمروده تلك الفلسفة من عقليين كبيرين كعقلى غيسوف
 أفلاطون وتلميذه الفيلسوف أرسطو وهما أعظم فلاسفة اليونان . ولم تعرض
 لفلسفة المضحك بعدهما عقل أكثر من عتسما إلى اليوم

وكان خليقا بأنلاطون وأرسطو أن يتفذا إلى جوهر الموضوع في فلسفة
 المضحك وأسبابه ثم أنهم قصدا إلى الموضوع في صميمه . وأرادا أن يستوعب
 المتروك والاحتمالات في أسس الصحت ونوع المضحكات ، ولكهما لم
 مقصدا هذا المقصد ولم يتكئما به إلا عرص في سياق البحث عن المدينة
 الفاصلة والبحث عن الشعر وأقسام الروايات الشعرية .

وأفلاطون ذكر المضحكين والمضحكات وهو يبحث عن مكدهم في مدينة
 الفاصلة أو جمهوريته المثالية التي أراد أن يقصرها على الأفاضل وأماوريين وأن
 يحسنها عوارض القصص والرديلة ، فبدله أن الشعر موكل بالجانب الضعيف
 من الإنسان بغير تفرقة بين شعر المأساة وشعر الملهاة .

فالإسان الكريم يأبى أن يستسلم للبكاء إذا أصيب في عرير عليه ولكنه
 لا يبالي أن يبكى وأن يحزن إذا رأى هذا المصير معروضا عليه في رواية حاجعة ،
 لأن البكاء يخدعه في هذه الحالة ويوقع في روعه أنه يبكى لغير مصابه
 ويغلب على نفسه في سبيل غيره .

والإنسان الكريم يأبى أن يفوه بالأضاحيك أو الخبائث المضحكة ولكنه
 يستسلم للمضحك إذا سمعها محكية في رواية هزلية يمثلها المرحييون أمامه
 وليس بالحسن عنى كل حال أن يكون في الجمهورية الفاصلة إسان يعذب
 عسى وقاره ضحكا أو بكاء بله الأناسى الذين يصورون الأرباب في عليين

معلوبين على هذه الصورة . ويقول أفلاطون إن الإسان الكريم لا يعرف أحد إلا
 بالهول وأنه من الحسن أن يشهد مسطر الهيب من العبيد : دأخوا لمسحرين
 ولا يعمس فيها نفسه . وقد أثنى على المصريين وأسمه يعمسون الأبناء
 بمسسى ورفض قدم وشعائر المسكة ونكبه لاستسحرون لشعراء بخط
 لأحسن لأعشى مسته وصائد مزروعة على رفض حارة وحب ، وقد
 كانت خلاصة رأيه في كتاب الجمهورية وكتاب القوانين أن الشعراء يحسنون
 صناعة الشعر ويستحقون من أجل ذلك أكاليل العار ونكبهم يلبسونها
 ويخرجون من المدينة الفاصلة إلى حيث يشاؤون .

ولم يذكر أفلاطون سبب الصحت إلا في كلمات قليلة خلال هذه المناقشة
 لأخلاقية ، وهو يرى في تلك الكلمات أن الصحت مرتبط بأخجل الذي
 لا يبلغ مبلغ الإيذاء ، وأن الشعراء يصحكون حين يحاكمون أولئك الجهلاء ،
 ولكنهم إذا طرؤا موضوع الملحة أو المأساة عظموا الصعد وجعلوا روياتهم
 حكاية لأعمالهم ، فلا آمن لهم في محاكاة الجهل ولا في محاكاة الطغيان .

وأرسطو أدق من أستاذه في تعبيراته عن أقسام الشعر لأنه وضع فيها مبحثا
 خاصا يتبع فيه المسرحيات المضحكة من أصولها منذ كانت ضرب من الهجاء
 والأغاني الشهوانية إلى أن أصبحت موضوعا للإضحاك والتسلية ، ولهذا
 جاءت في الترجمات العربية باسم الأهاجي والتهريجات ولم يستدعوا لها
 اسما يقابل اسم الكوميديا ، كما صنعنا في العصر الحديث إذ سماها
 بعضهم بالمهرلة وبعضهم بالمهابة وعربها بعضهم بلعظها الليوناسي فسموها
 الكوميديا .

وعند أرسطو أن المضحك ضرب من النميم أو المشوه لا يبلغ درجة الإيلام أو
 لإيذاء . وفي سنة مسسوبة إليه من رسالة مقطوعته طبعها كيبيل Kaibel ،
 لأن النفس المطبوعة على الرحمة أو على حسن الذوق تجد في المأساة والملهاة
 مصرفا لما تطوى عليه من العطف والشوق إلى الكمال واجتناب التشويه .

وكلا الفيلسوفين قد تفرق إليه خطأ من فهم المأساة والملهاة على أنها نوع
 من التقليد والمحاكاة ، لأن الشعر المسرحي يعرض المواقف بتمثيل أناس
 يحاكون المصائب بها في حركاتهم وأقوالهم ، وكذلك يعمل بالمضحكات
 والملهيات .

وأفلاطون من أجل هذا ينزل بالمقلدين إلى الدرجة الثالثة ، فيقول إن

قال : « الضحك - والعبرة محق - كلمة مرادفة لكلمات في معناها ، وتدل على الفرح كما جاء عن إبراهيم أنه حرق على وجهه وضحك ، ومعنى ذلك أنه كان فرحاً بما سمع .

« وقد يدل الضحك على السخرية والاستهزاء كما يقول الفاضل : إنني ضحكة للجار ، وربما امتزج معنى الضحك والسخرية كما جاء أن الذي يستوى على السماء - الله - بهراً بهم - إذ كان الضحك أحياناً دليلاً على الشعور بالاحتقار من يستحق الاحتقار ، وهكذا يشعر من يلحظ نقصاً في كلام أحد أو عمله ويشعر بتفوقه عليه لأنه لا يتفق في مثل ذلك النفس بما يتولاه الضحك لأنه يرى الآخر يقول أو يعمل ما لا يجعل بالإنسان ووقاره .

« وعلى هذا النحو ينسب الضحك إلى الله في التعبير المتقدم ، وسببه أنه يسمع الفاتلين يقولون : هلموا نرق شملهم ، وهي كلمات لا تجعل بالبشر أن ينسبوا بها . على حد قول الربانيين أن سبب التشابه بين نشيد أيسالوم وأخيبار بأجوح وماجوح أنه لو سأل سائل : هل من الممكن أن يتمرد العبد على مولاه ؟ لكان الجواب : وهل من الممكن أن يتمرد لولد على أبيه ؟ .. وقد حدث هذا فمن الممكن إذن أن يحدث ذلك .

« وواضح من ثم أن ذلك للمقال بما لا يحسن بإنسان أن يقوله إلا كان أهلاً للارذاء والسخرية . وهذا المعنى ينسب الضحك إلى الإله وإلى الإنسان .

« ويضحك الإنسان أحياناً إذ يتخذه غيره في أمر كان ينبغي أن يحلوه المحتوج وينتبه إليه . ومن ثم يرجع سبب الضحك في جميع الحالات إلى الشعور بالتعوق في نفس الضاحك حين يرى غيره يقع في حماقة وأمر ينبغي عن جهالة . ويقول العلماء أن الضحك خاصة إنسانية كما يقولون أن أسبابه مجهولة ، ويعنون بذلك أننا لا نعلم لماذا يكون الضحك مصحوباً بحركات جسدية معينة ولماذا يحدث الضحك عند لمس الأبط أو بعض المواضع الحساسة من الجسد . على أن حدوث الضحك من السخرية معروف جد المعرفة كما بينا في شرح الآية ..

وظل هذا الرأي مأخوذاً في تفسير الضحك إلى أوائل العصور الحديثة . وهو على التقريب رأى الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز الذي يرجع بكل حليقة أو عاطفة ترضى الإنسان إلى شعوره بالقوة والامتياز والرجحان . ويرى أن الأخلاق الإنسانية المحمودة تدل جميعها على القوة في صورة من صورها ..

والكرم والشجاعة والصبر والعزة ونفصائل جميعها لأننا لحمد الإنسان ما لم تكن مقروبة بالقوة والدلالة عيها ، وتساوى الأخلاق النبيلة والمواطن الرفيعة في هذه الخلقة ، بل تتساوى فيها الأعمال الإرادية وغير الإرادية كالضحك في صورته العقلية وصورته حسدية . فإنا يضحك الضاحك لأنه يحس من نفسه انتصاراً مفاجئاً أو مزية مفاجئة ، ولا بد من شعور النصر أو الامتياز فيما يضحك الإنسان ويرضيه .

وهذا هو الرأي الذي توافقت عليه أقوال التكلمين عن الضحك من عصر الفلسفة اليونانية إلى العصر الحديث ، ولا حاجة إلى انتظار التعقيب الأخير على حكمة « إصباح احصى في صد سبعين ندى يصع في واحد من المضحكات ولا يصع في جميع حوسنها » بل الإنسان قد يضحك أحياناً حين يشعر أنه قد جمع كما يضحك من عفة غيره حين تجر عليه الخديعة السخيفة ، وليس هذا دليل على الشعور برجحانه بل هو دليل على شعور برجحان غيره عليه .

والمثل القريب على ذلك ما تقدم عن الضحك « الإجماعي » في مؤتمر الساسة الذين جلسوا لتضييق الخناق على نازيون ثم جاءهم الخبر فجاء بانطلاقة من جزيرة الباء وعودته إلى فرنسا . فهذا موقف معلوم لا موقف غامض ، ولا يستقيم تفسيره بشعور الرجحان أو الانتصار من جانب الضاحكين ..

وكل ما يشد في جميع الحالات أن هناك معاداة تحالف الحالة المطردة أو الانحداء الذي يجري فيه الشعور . وبهذا يسهل تفسير الضحك عن حسوا بظمو القارة الأوروبية بعد اعتقال نازيون كأي هذا الاعتقال أمر معروف منه ثم تقع المعاداة بما يحالف الحسا

افراط المحدثين

وإذا كانت الشكوى من الثقافة القديمة لغة البحث في الضحك وأسبابه فقد يكون الإفراط في هذا البحث شكوى الناري من الثقافة الحديثة ، لأنها توشك أن تتطلب منه تخصصاً ثقافياً مقصوراً عليها ، وقد أثبت برجسون نحو أربعين مرجعاً من الكتب والأصول ألم بها في رسالته عن الضحك ، ويمكن

١٠٠ . . . فيها ثلاثة أصنافها من المراجع المتفرقة عن منسجم المضحكات عامة
: من موضوعات الفكاهة والنكتة في مزاج الأمة أو تلك أو في أدائها
١٠٠ . . .

١٠٠ . . . الإفراط في الكثرة عن الضحك إلى ما عدا حدسه في
حد حدين أحدهم شدة علم الدوق أو علم الجمال الذي ينظر في
معدله من الحميل والخليل والمضحك كما تعرضها للفنون الجميلة ولا سيما
السينما . وكأنما كان اهتمام المحدثين بالتمثيل ورواياته وأدواره تجديدا لا اهتمام
بالسينما وأرسطو بالتراجيدية والكوميديا وملكات الشعراء الذين يكتبون في
الضحك والمضحكات والملاحم الكبرى عن الأرباب والعبادات وما استطردت
من موضوعات لا علاقة لها بالدين وقد تناقضه وتخالف الأدب الواجب
المعصود وشعائر العبادة . فإن عودة الأب المسرحي في العصر الحديث
د . . . دعة البحوث الفنية والفلسفية في الموضوع من جميع جوانبه وأطرافه ،
م . . . البحث فيه عن المضحك والمبكي وحسن والتبجح مقرونا بالبحث عن
نفسه ونفسه في شعور الإنسان وفي الكائنات التي يقدسها ويرتفع إليها
الإنسان ولا نهال . واستدعى تمثيل هذه الكائنات شعرا وبحثا وصوريا أن
يوسع لها الخلود والتعريفات وتقام الفواصل بينها وبين ما ينتهي بها من
المتشابهات أو المتناقضات .

هذا أحد الباعثين الجديدين إلى إفراط المحدثين في الكلام على الضحك
وتعليل أسبابه وتطبيقه على العنود المتجددة في الزمن الحديث .

أما الباعث الآخر فهو شجوع البحث في التطور ومذهب النشوء . . . فإن
هذا المذهب يفسر تعبيرات الإنسان عن خواجه وعواطفه بما يوافق طبيعته
الحيوانية . ويتقصى وحوه الشبه وحوه الاختلاف بينه وبين سائر الأحياء في
الصفات العصبية ، ويراقب ملامحه ليربط بينها وبين صفات الجسدية واما عدد
الصفات لدية العوامل الداخلية والعوامل الخارجية

ولا يسمع لإنسان إلا أن ينسجم لتناقض النتائج التي وصل إليها أقداب هذا
المذهب بعد بحثهم في ظاهرة الضحك والفكاهة . فإن العالمين العظميين
الذين تواموا - بغير التقاء بينهما - إلى تحقيق ظواهره وشواهده قد دها إلى
الطريقين المتضلين في تعليل الضحك والفكاهة .

فمن رأى المرء رسل ولاس Alfred Russel Wallace

أن الضحك وسائر الخصائص الإنسانية التي ينمى بها النوع الإنساني
لا تقبل التفسير بالانتخاب الطبيعي وتطور أنواع الحيوان . وهو يتساءل كيف
فسر لنا الانتحاب الطبيعي ملكات الرياضة والموسيقى والإحساس بما فوق
الصبيحة ؟ ويعود مستورا إلى ملكة الفكاهة من هذا الطراز بين الخصائص
الإنسانية . لابد تحت جميعها إلى تفسير غير تفسير لصراع على الحياة
وتنازع البقاء ، ولو كانت من هذه الأسلحة في النوع الإنساني لما كان مفهومها
كيف يتجرد منها معظم الناس ولا تتوفر لغير العدد القليل منهم في أرقى
الحضارات . ولا كان مفهومها كيف يتجردها منها المجمع ولأوائل المطربون كما
يحدث منها الأكثرون بين المتحضرين . فهي كما قال في تطبيقه المذهب
الدارويني على الإنسان أخلق بأن تفسر بالملكة الإلهية التي يختص بها الخلق
بعض الطبائع الموهوبة . ولن تقل التفسير بغير ذلك ولو باختصاص شديد

ومن رأى درون أن الضحك قد يوجد بمعزل عن التفكير كما يلاحظ على
البهائم وصغار الأطفال الذين يصحكون ليعبروا عن حالة الرضا والارتياح
ولا يصحبون ذلك بفكرة أو خاطرة ذهنية . والأصحاء من الراشدين تعترضهم
حالات الضحك لأسباب غير أسبابه في الطفولة . ويصدق هد على
الضحك ولكنه لا يصدق على الاتساع . وكأنما يعبرون بالضحك عن حالة
مقابلة البكاء الذي يقتصر بالشدة والكأنة العقلية كما يقتصر بالخوف
والغضب ، ولعل شيئا من الغرابة المفاجئة مع شيء من الشعور بالتفوق هو
أشجع الأسباب لضحك الكبار الراشدين . ومن الواجب ألا تكون الظروف
على جانب عظيم من الخطر والجسامة . فإن الرجل العقيير - مثلا - لا يتطر
مه أن يضحك إذا سمع فجأة أنه كسب مقدارا كبيرا من المال ، ولكن العقل
إذا هاجه الشعور بالمسرة وطرأت عليه خاطرة صغيرة غير متوقعة فالتشاحط
العصبي يفرح عن نفسه بتحريك العضلات تلك الحركة التشجعية الخفيفة
التي سميناها الضحك

قال في كتابه عن تعبيرات العواطف في الإنسان إن الخود الألمان أنه
حاصر باريس كانوا يندفعون إلى الضحك لكل ثقافة من نهات النكتة بعد
طول التعرض للخطر الشديد . ويقول مشر هنتون من سان فرانسيسكو أنه كان

يتأوه الصياح والضحك وهو على التلال عند الباب الذهبي معرضاً لأدح
الأحظار . وهكذا يشاهد على الأطفال الصغار وهم يهيمون بالبكاء أن بكاءهم
يتحول إلى ضحك حين يطرأ أمامهم ضاري غير متوقع ، مما يفهم منه أن
الضحك يفيدهم في تصرف فيض الجهد العصبي الذي يحسونه على تلك
أحوال .

وينظر داروين إلى أسلوب انجيز حيث يقول القائل إن الخيال دغدغته فكرة
مضحكة فيلاحظ أن دغدغة الخيال مائلة لدغدغة الحسد وتتخذ المثل من
ضحك الأطفال و « تشنج » أجسامها الصغيرة بفعل الدغدغة ثم نلاحظ أن
تعدد العليا تبدر منها أصوات مرعدة في مثل هذه الحالة ، وبعود فيفرق بين
الضحك من فكرة مازحة والضحك من أثر الدغدغة إلا في مر واحد هو أن
يكون العكر في حالة راضية ، فكما أن الطفل يصيح ولا يضحك إذا دغدغه
رجل غريب واشتد عليه حركة الدغدغة كذلك ينبغي أن يكون الفكر بعيدا
من الجفوة والشعور بالاكتراث والاهتمام ، ونحدث في الدغدغة الجسدية في
المواضع التي لا تتعرض كثيرا للمس ولا يكون موضع الدغدغة معروفا قبلها ،
وكذلك تحدث الدغدغة العكرية من خاضع غير معهود ولا معروف قبل ذلك ،
ويسدو أن عنصر الطرود أو المناقرة الذي يحرق في سياق التفكير هو العنصر
المعوى في تكوين للضحكات .

ثم يرافق داروين عوارض الضحك على الوجه والجسم ويحصيها إحصاء
دقيقا في متابعتها على حسب الرخاوة أو العنف في الشعور ، ويقرر أن الشعور
العتيف كله متخذاً تعبيراً واحداً في حالات الحزن والسرور وأن مشاهدة ذلك
ميسورة لمن يراقب العصائين (الهستيريين) والأطفال لسرعة تأثيرهم بأنواع
الإحساس ، فإنهم يتراوحون بين الضحك والبكاء في الوقت الواحد ويتقلون
من الشعور إلى نقيضه لأنهما عندهم متقاربان . وشأن القبايل العظيمة عند
داروين كشأن الأطفال في هذه الحصلة ، لأنه رأى في حزر ملقة نساء يبكين
إذا أغرين في الضحك ، وروى أقوال السائحين عن سكان استراليا الأصلاء
أنهم يقفزون ويصمقون وتعروق أعينهم بالدموع وهم مرحون ضاحكون ، ثم
قال إن الاستراليين والأوروبيين يتشابهون في ضحكهم جميعا من رؤية المحاكاة .
ومن القبائل القبطية في جزيرة سيلان أساس لا يضحكون لمنظر قط من المناظر

المضحكة . فيما رواه هارتشورن ٢٥٥
مستغربين : وما الذي يدعو إلى
الابتسام والضحك في جميع الأمم يجزيه
أحد خامس في الحركات أو المعاني يتردد
وظاهر من دراسة داروين كلها للتعرف
بمناقضته إلى العوارض الجسدية التي تعد
الحيوان في بعض الأحوال ، والعوارض
الأخرى التي لايسهل ضبطها وتعميمها .
مشاركة بين الناس من جانب وبين السرور
وهو على خلاف زميله في مذهب .
بالتميم والأشياء الشائعة دون تلك
مرية محدودة لا يصرح نادر النقاد
موسيقية وما إليها . فسمعهط .
التفكير كضحك الأطفال والعصبية
ملكة الفكاهة العالية التي يتأثر بها
عند العاقرة الذين يكشفون حجاب الحزن
ويعلمون الناس كيف يفهمونها ويدرس
للكتيرين أن يحاروهم على فهمها وادرس
والنزعة الوجدانية هي سر الآدميين
العالين الكبارين . عداروين يبحث
موطن الشبه بين أرقى الأحياء وأدنى
بوحدة العوارض الجسدية التي تصا
المشاهدات الحسية . ويعتبه أن يراقب
بعض المواضع في أجسامها باللمس
وكل هذا لا يفسر الملكة التي يعدها
سفرها الأدميون بل يفرد بها
تنحبه إلى الإيمان بالروح الإلهي وسر
كلما تهيأت لها بهداية السماء

لهم يقولون إذا سألوا
هنا أو ذاك ؟ . . . إلا أن
واحد فلا يستطيع وضع
بدواعي الانتماء
لحياة الحياة أنه يتحبه
الإنسان وقد تعم بعض
أدق لديه من العوارض
تلك تحليلها بالانفعالات
لعلماء من الجانب الآخر .
سرور - الفرد ولاس - موكل
معية التي يرى صاحبه أنها
الإحراك الرياضي والبلادة
من الضحك التي يقل فيها
المعربة - يرتفع ولاس إلى
ربع فلما يزيد عددهم على
١٠ ودفائق النسب الموسيقية .
ولهم وبصائرهم فلا يتيسر
القفرة إلى المضحكات بين
لأنواع الحيوانية فيهبط إلى
مقد الصلة بين هؤلاء هؤلاء
من تأثير الدغدغة أو تأثير
لدغدغة في القردة التي تتأثر
بغير الماكوف .
سريع يعلو بها إلى الطبقة التي
لأن نزعة الوجدانية
يضها على الأرواح الإنسانية

الشعور بالموقف ولا يدع فيه بقية للانتقال منه والانتقال إلى غيره . فإن هؤلاء قد يعملون عنه أو يعصبون لتنبيههم من الشعور الذي هم مستغرقون فيه .

وسيل سينسر : أن المؤثرات لها في الإنسان ثلاثة مفايد : منفذ الحس ، منفذ الفكر ، ومنفذ الحركة العضلية ، وإنها كلها قابلة للتحويل من منفذ إلى منفذ سواء بدأت بالتفكير أو بدأت بالحس أو بدأت بحركة من العضلات .

فالرجل الذي يهرب من الخطر الداهم يجري وتشتغل عضلاته بهذه حركة . ولكن هذه الحركة العضلية لا تستغرقه ولا تمنعه أن يفكر في الخطر والحيلة التي يحتالها أو العمل الذي يعمل له للنجاة منه .

فإذا كان الخوف أهون من الخوف على الحياة فربما انصرف بالحركة وأصبحت الحركة ضرباً من الرياضة التي يتشاعل بها الإنسان عن حالته النفسية

والطفل يصفق إذا فرح لأن شعوره ينتقل من الأعصاب إلى العضلات . أما فريك الرجل الكبير كفيه في مثل هذه الحالة لأنه يعود هذا الشعور أو يعود أن يتحول عنه إلى الفكر كما يتحول إلى العضلات .

وما يدل في رأي سينسر على أن الضحك من حركات رد الفعل أو من حركات الانعكاسية أنها حركات لغير قصد أو حركات غير معصودة بإرادة صاحبها ، كأنها غمضة العين للوقاية أو رعشة البرد التي لا يريدونها المقرور . . .

ويتبسط سينسر في وصف تأثير هذه الانفعالات غير الإرادية فيرى أن تأثير الشعور قد يعطل تفكير الخطيب على الرغم منه وهو واقف أمام الجماهير يحس وجودها ويخشى أن يتلعثم أمامها أو لا ينال موافقتها وأعجابها . ولو أنه وقف ليلقى خطاباً أمام الكراسي الخالية لانطلق تفكيره بغير عائق من الحس والشعور . وهاتان ثلاثة عوامل مشتركة في التأثير على الخطيب : عامل الحس إذ يرى الجماهير ، وعامل الشعور إذ يخشى التقصير والخيبة ، وعامل الفكر الذي يشعل الحس والشعور جاذباً منه فلا ينطلق مع اشتراكها كما ينطلق على أفراد .

والسريان بين منافذ الحس والتفكير والحركة طبيعي في المؤثرات النفسية ، وبدأ تجري في مجراها الطبيعي من الفكرة إلى الحس والحركة ، أو من الحس إلى الحركة والفكر ، أو من الحركة إلى الأحاسيس والأفكار

غير أن الحس أو الفكر لا ينتقل إلى معصر التي من قبيله ، فإذا كان الألم شديد جداً إلى العضلات عند المفاجأة . لأنه يحس حرقاً يصده عن مجراه

ويستطيع من شاء أن يحس ذلك من تجاربه ومشاهداته :

إذا جلس الدرس في مأثم وحدثت عن مسد بضحك الغريباء عن المأثم وقد يصحح صدم الميت ، ولكن الكبار المفجرون لا يصححون ولا تشنه المفاجأة المضحكة حتى تسفر من وربما أثارهم وأغصبتهم أن يروا أمامهم أحد والفجعية .

وملاحظة سينسر هذه مهمة جداً ومنها تعريف أملاطون وأرسطو وغيرهم بالسخف أو التشويه الذي لم يبلغ منه

فالألم ماع للضحك لأنه يشعل الشعور بالضحك بشيء آخر لم يشعر الإنسان بأحد الأمر هنا خاصاً بالضحكات دون احساس

أن المفاجأة التي تعوق الإحساس عن حدوثها للضحك ولا حاجة معها إلى الشعور وليس بالاستثناء للضحكات دون

أما إذا كان الإحساس من القوة بحيث طريقه ولا يتحول إلى العضلات ، ولا يحس بجميع المفاجآت .

وإذا قال قائل عن جدول الماء أنه يجري شئاً عن طبيعة الماء دون غيره . فهذا وجود العائق في طريقه سواء في ذلك حر وحركة الفذيلة من أقوى المدافع والرميات

غياب الحس والفكرة
لشعور كله فهو لا ينتقل
عنه الشعور بغير عائق

نحيله على وفاق المألوف

هم مفاجأة مضحكة فقد
صرون وإن كانوا من أهل
مورهم يفيض في مجراه
إلى حركة العضلات ،
ست وهم مغلوبون بالأسى

سيح التعريفات الأخرى ،
يقولون أنه نتيجة الشعور
بالماء .

للمضحكات ومتى اشتغل
باللذة ولا بالسرور ، وليس
بالمسرات .

وتحوله إلى العضلات كافية
بأنه ، لأن الألم استثناء لكن
شعور وليس بالاستثناء للضحكات دون

به المفاجأة فإنه يجترقها في
الضحك من ثم على الرغم من
جميع المفاجآت .

أما يعق عائق ، فهو لا يقول
لكل منحرك أنه لا يتحرك مع
وحركة البحار وحركة السهم

وكذلك يكون من قبيل تحصيل الحاصل أن يقال أن الضحك يحدث ما لم يسهه الألم . فإن الألم يحجب الشعور بالضحكات وغير الضحكات : يحجب المتعة بالمتعة كما يحجب المتعة بالجمال والحلال واللذة وبدائع الفنون على الإجمال .

ونذكر هنا ما لاحظناه أنفاً على تعريف أرسطو الذي يشترط في الدعامة ضحكاً ألا تلغ حد الإيلام . فإن الإنسان البليد لا يتألم ولا يفطر للضحك في وقت واحد ، وإذا جمعنا اثنين أحدهما مرهف الإحساس والذهن والآخر ثقيل الإحساس والذهن فلا يلزم أن يكون هذا أكثر فطرة للضحك من ذلك لأنه بصي ، ألم . بل يظن شعوره بالألم وشعوره بالضحك في وقت واحد ، ويعمل عن التوفيق كنه يجمع درجته فلا يلزمه ولا يحسنه في درجة من الدرجات .

ومن ثم ينتهي بعد ما تقدم إلى الثقة من شرط واحد في الضحكات وهو تنوع المفاجأة التي تتحول بالشعور عن محورها . فإذا كان الشعور حارياً في محوره . كشعور الحزن العميق . ومفاجأة لاندفعه إلى الضحك ، وإذا كان في انعكاس نفسه أحد لا يسمع منه خبر ذلك المسح من العمق والاستعراق فيه بضحك من مفاجأة لأنها تستطيع أن تتحدت بالظن ، أو المسمع ، من حسن الأعصاب إلى حركة العضلات .

رأى برجسون

والرأى الثاني بين الآراء النموذجية هو رأى هنري برجسون الفيلسوف الفرنسي صاحب مذهب دفعة الحياة .

ورأيه في الضحك أنه في وقت واحد تطور منطقي وحاسة اجتماعية .

فحين يضحك إذاً إنسان تنصرف تصرف الآلة ويقبض الأمور قبساً أكس لا محل فيه للتفسير المنطقي . ولكن يضحك في اجتماع عامة ولا يضحك منفرد لأن الضحك نسبة اجتماعية أو عقوبة اجتماعية لم يعبر عن المعنى المسح في المعنى أو في المعنى أو في الهيئة الاجتماعية نفسها .

والضحك عند برجسون إنساني بمعنى الكلمة جميعاً ، فلا يشهد في غير الإنسان ولا يستثيرنا الضحك في غير عمل إنساني أو عمل ترتبطه بالإنسان .

فحين لا تضحك من منظر طبيعي أو من جمود كائن ما كان إلا إذا ربطناه بصورة إنسانية . وجسمه شبيه بربسان يعرفه أو مسرور عمل من أعمال الناس . وقد يضحك من قبة نراها فلا يكون ضحكاً من القصة بل من الإنسان الذي يلبسها وتتصور هيئته فيها .

ومن شروط الأمر المضحك عند الفيلسوف أن يكون شيئاً إنسانياً بغير معنى . أو يكون المعنى فيه مطرداً على طريقة تبيته كونه من أعمال الأدوات المجردة من التفكير .

ومن شروط الأمر المضحك عنده أن يحصل في حده . يرتبط بالتصرف في الجماعة . فقلما يضحك الإنسان على أفراد إلا . يستحضر العلاقة الاجتماعية في ذهنه . وقلما ينظر إلى أحد يضحك عن أفراد إلا يخاف من الشك في عقله ما لم يكن له عذر بعبثه ، فلا يربح ضحك على أفراد محتاجاً إلى اعتذار وتوضيح .

لهذا يصغر برجسون أن الضحك مرتبط بالتصرف . يطلق والحاسة الاجتماعية في وقت واحد . فهو وسيلة من وسائل جميع حمل أسسه على التصرف فيه تصرف الراشدين الذين يفقهون معنى ما يصرون .

ويفسر الفيلسوف أنواعاً كثيرة من الضحك على ضوء هذه الشروط . فيقول مثلاً أن مروءة الخبزة تهم الأطفال كثيراً فهم يضحكون من كل حركة بصطدم تغير وعي ويفقد فيها لمرة قدرته على المروءة ، ويقوم . من حيل في الحركة يضحك إن قاربنا من حيل ولوقع ، ومن اللطافة التي تدعينا تمام الخلقة والتكوين والتصرف معهود . وكثيراً ما يضحك شيء . ذهن لأن الإنسان الداهل يسي عقله وحاسه الاجتماعية أو يعمل غير سر ما يقتضيه حالة التي هو فيها .

ويؤسس الفيلسوف إلى مناظر المحاكاة فيقول أن المحاكاة ، ضحكنا لأنها عمل يشبه عمل الآلات وتضحك لأنها تلمت النظر إلى حيلة أو التناقض في الإنسان عكس ذاته شبه الآلات . وقد رأينا وجه . ساهان تشابهها بام ضحك لأنها تصور شيئاً مصروعاً في قالب . . . كما تصنع الوجوه التمثيلية . .

وضحكنا أن يتحكم الجسد في العقل والإرادة تحكمه غير مناسب للموقف الخاص ، ويضحك من لخطب الذي يخطبه أحد . . . والعطاش في وقت

لأعضاء التي لاتنع حد الإجرام لأن المجتمع معالج بعالم هذه نأجاء القانون
وإنما يتم وبسبب الأخطاء التي يسببها الدوق كل السومع سوء النية
لأن مجتمع بدوى هذه بأسعور والاشمشر وإنما يكفى بتصلحك من الأخطاء
سبب فيها الإنسان عن التقاليد الاجتماعية على غير قصد ويعبر نية
سبب فيه لأعضاء يكفى في الحدير منها أن يتعرض صاحبها للضحك
وإن يكون حد التصحيف عبوة على قدر الإساءة العارضة ، فيحسب في هذه
حده كانه قدون حبيب حيث لا حاجة لتطبيق القانون الذي يخص المجتمع
من أحرار وأصهار أحباء

من يكاد يكون الصحت عدا اجتماعيا حقيقيا لمن يديون بالأحكام الخرفية
ويصنون انقواعد في دقة وصرامة توحي إلى الذهن أن الذي يطبقها آلة لاتفكر
ولا تحس بما تصعه ولا تفرق بين جواز وجزاء وتقدير وتقدير .

ففي هذه الحالة يكون الصحت تصحيحا للأحكام المبالغ في دقتها
خرفية ، لأنها صفة آلية لاتتبع بالتفيس المنطقى والتقدير السليم

وزبدة الأمثلة جميعا في رأى بوجسون تلخص أسباب الضحت في حماية
المطلق الإنسانى وحماية الحاسة الاجتماعية على الخصوص . فكلما هط
الإنسان من مرتبة التصرف المطلق الذى سبب علاقاته الاجتماعية كان
ذلك مثبيرا لصحت منه تنسبه إلى نفسه ، على شريطة الوقوف بيده
لأعضاء عند حد لا يبيع الإجرام ولا يدخله سوء النية بل يحبو من كل
قصد يقصده الكائن العاقل المتصرف . فيرتد إلى الحركة الآلة التي تسجد
من المقصد في جميع الحركات .

رأى فرويد

بقى من الآراء النموذجية رأى سيجموند فرويد Freud الطبيب النفساني
صاحب المذهب المشهور الذى شاع وشاعت مصطلحاته على الألسنة حتى
صبح حديث البوعى الباطن والعقد النفسية ومركب النفس وما إليها من
أحاديث خاصة والعامة ، وكاد هذا المذهب أن يستأثر بتفسير حفايا النفس
البشرية في مسائل الأخلاق والعادات والبواعث الفردية والاجتماعية

وقد أفرد الطبيب النفساني رسالة مسهبة للكلام على النكتة ومدولاتها
الاجتماعية والنفسية ومواطن الشبه بينها وبين الأحلام والرؤى في الوظيفة التي
تؤديها للفرد وللجماعة .

وزيدة رأى فرويد أن النكتة صرب من القصد الشعورى والعملى يلجأ إليه
لإنسان في المجتمع ليعفى نفسه من أخطاء الواجبات الثقيلة ويتحلل من الحرج
الذى يوقعه فيه الجسد ولوارم العمل . وأن النكتة تشبه الحلم فى أساليبه وهى
التورية والتأويل والاحترال والمسح والتلفيق . أى جمع الصورة الواحدة من
أجزاء صور متفرقة لاتجتمع فى الواقع .

والناس يقولون عن الرجل أنه يمزح أو يقولون عنه أنه يحلم على السواء
حين يريدون إغواءه من المؤاخدة ولا يريدون الحد معه فى المحاسبة والتحقيق .
وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يعلمه بخبرة والدليل ، وكذلك
يحتال فى أحلامه على تحقيق الأمنى التي تفوته فى اليقظة وتشغل باله على
غير جدوى . فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم على صموبة واحدة وهى تيسير
الواقع وإغواء من الكلمة والمنشقة .

وقد أورد فى رسالته أمثلة كثيرة سنشير إلى بعضها ونكتفى هنا بتأدية
واحدة من النواذر الفكاهية التي تساوى الأحلام فى رفع الكلفة والسماح
لقائلها أو سامعها بما هو محظور عليه إذا جد فى القول وعبر عن غرضه
بالكلام الصريح :

رجلان من أصحاب الملايين صنعوا صورة لهما عند رسام مشهور وعرضت
الصورتان فى معرض عام وبهما فجوة تتسع لصورة ثالثة . فقال أحد
الناظرين وهو يتأمل الصورتين ويظهر إلى الفجوة التي بينهما : هاهنا متسع
لصورة السيد المسيح

وسمع الواقفون كلمته وعلموا أنه يقول عن صاحبي الملايين أنهما لسان ،
لأن القصة للمسيحية تقول إن السيد المسيح وضع على الصليب بين لصين ،
وعلموا أيضا أنه يعنى أنهما يستحقان الصلب كما استحقه أولئك اللسان ،
ولكنهم ضحكوا . وسمع صاحب الصورة ما قيل فلم يجد سبيلا إلى مؤاخذته
أو رفع أمره إلى القضاء ، ولعلهما لو فعلا لانهما الناس بالخلامة وجرا على
نصيهما من السحرية ما كانا فى عسى عنه .

ويريد فرويد منا فى هذه البادرة وأشياها أن تتحلل قائل النكتة وهو يحلم
ويعبر نفسه عن الخمران من الثراء . فإنه سيحقق فى منامه قصة يتمنى منها
صاحبي الملايين مشهرين بين الناس بالسرقة أو مسوقين إلى ساحة المعص ، أو
معلقين وراء جدران السجون ، فيعمل الحلم عمل النكتة فى ترضية الرجل
بأسلوبين مختلفين يصدران من باعث واحد لعاية واحدة .

ويسمر فرويد أنماطاً من النكتة تشترك بين الجناس والمغالطة ورد الخيلة بحيلة من قبيلها والتفاهم على الكذب والأجوبة المسكتة وكشف السر على غير قصد وغيرها من المضحكات مما ينطبق عليه تحليله بسهولة أو ينطبق في صعوبة ونصف .

وهذه أنماط منها لنقلها بغير ترتيب ، ونبدأ منها بنادرة تشبه النواذر التي تروى عن قره قوش وتصلح للدلالة على وحدة المنطق المعكاهي بين الناس على تباعد الأقطار والأجناس .

يروى في بعض قرى البحر أن حدادا اقتترف جريمة يعاقب عليها بالموت محار قاضي القرية في أمره لأنه الحداد الوحيد في القرية ولا تستغنى عنه بغيره إذا نفذ فيه الحكم ، ثم اهتمى بعد التفكير إلى حل المشكلة بإعدام الطرزي بدلا منه لأن القرية فيها طرزيان !

ومن الأقوال المضحكة التي استشهد بها فرويد قول الشاعر هائسي في امرأة يعيبها في قلب الشاء فيقول أنها تشبه غزال الزهرة « فينوس » .. لأنها مثلها عتيقة جدا . ومثلها بغير أسنان . ومثلها في البقع البيضاء على بشرتها الأصفر .

وشبيه بهذا الشاء المعكوس قول القائل عن رجل يهجو أنه يشبه جميع العظماء . فهو كالاسكندر ينحرف رأسه إلى جانبه . وكبوليوس قيصر يكمن شيء في شعره على الدوام ، وهو يفرط في شرب القهوة إفراطا ليبنترز . ويسى الأكل والشراب إذا جلس على المائدة كأنه إسحاق نيوتن . ويحتاج كما يحتاج إسحاق نيوتن إلى من يوقظه .. وهو يلبس الشعر المستعار كالدكتور جونسون . ويترك سراويله مفتوحة كمؤلف دون كيشوت

ومن نواذر فرويد عن اليهود - وهو يهودي - أن يهوديا رأى على حية زميله بقايا طعام فقال له : « إنتى أستطيع أن أذكر لك الصنف الذى أكلته بالأمس » . قال زميله : « حسن ، قل ودعنا نسمع » فقال له صاحبه لمتعالم : « أنك أكلت فولا » .. فسخر منه أكل القول وقال : « كلا . إنت خلطان يا هذا . فإنتى أكلته أول أمس » !

ويلاقي يهوديان في القطار فسأل أحدهما الآخر : « إلى أين تذهب ؟ » فأجابه الآخر : « إلى كراكاو » فعصب السائل وعاد يقول : لماذا تكذب على ؟ .. إنك تعلم أنك إذا قلت لى أنك ذاهب إلى كراكاو فهمت أنا أنك

ذهب إلى سرح . ولكننى أعلم فى هذه المرة أنك ذاهب ..
تعداد هذه النكتة ٩

ويذكر فرويد من من النكتة أسيرة يعتمد على اللعب من هدفه ضحكة سهلة ، ومن قبل هذه النكات قول :
فلانا له مستقبل عظيم وراءه ! . وقوله عن وزير زواجه :
عاد إلى حقته : « أنه عاد إلى مكة أمام أغراث » !

ويذكر فرويد يعتمد على اللعب بصفة واحدة تختلف من
عن فتاة كنت على اتصال بجميع رجال الجيش : « أنها
لأن الجيش لا يصدق ببراءتها » .

ويذكر النكتة في الجواب ، ومن قبيلها أن رجلا قصد إلى
ومهمه أنه في عسرة شديدة وأنه يحتاج إلى قرض يسر
محقة . وبعد إعطائه القرض بساعة رآه المحسن ينطق إماما
مضغمة الصفة نعليا وأمامه صفحة من السمك الفاخر فقال :
تحق المال الذى نستعيره للصورات تشاكل به الصحاف
المحتال وكأنه نهش من سؤاله : « عجبا لك يا سيدى !
إن كنت لا أكلها مملسا ، ولا أكلها وفى يدي ثمنها ؟ »

وعلى هذا النمط قصة مدرس فى إحدى القرى موان
يدمن السكر حتى اعتزلته جميع الأسر ونفر منه تلاميذه
قائلا : « إنك تستطيع أن تجمع عندك تلاميذ القرية
الشراب ، فلماذا لا تحاول وتجرب ؟ » فأجابه المنوس السكر
هذا .. إنما أعطى الدروس لأجد الشراب فهل ترانى أستاذ
الدروس ؟

وقريب من هذا اللعب بالمقابلة قول القائل فى تماعة :
نمصى نصفه ، الأول منطعن إلى الساس ، وثقضى نصفه
على الأول !

وسمع فولتير قصيدة روسو الشاعر الفرنسي الذى كتب
إلى الأجيال المقبلة . فعقب عليها قائلا : « هذا خطأ
إليه »

وللأجوبة المسكنة نصيب وافر من أساليب الضحك عند فرويد . وهذه أمثلة منها :

كان القيصر أغسطس يسبح في أرجاء ملكه فلمح شخصا يشبهه كل شبهه .

- أكانت أمك تعمل في بيتنا ؟

فأجاب الشبه الجريء :

- كلا . . بل كان أبي . . !

وكان بعض الرواعظ الأمريكيين ينادى بحقوق السود في بلد ليس فيه كثير من السود . فقال له رئيسه :

- لم لا تذهب إلى كنتكي حيث يقيم أصحابك ؟

فسأله الرواعظ المستول :

- أأست يا مولاي تعمل لإنقاذ الأرواح من النار . فلماذا لا تذهب إلى جهنم ؟

ويتخلل الأمثلة كلها نواذر متفرقة تعتمد على الجنس اللفظي الذي لا ينقل من لغة إلى لغة ولا حاجة إلى نقله لكثرة هذه العكاكات الجسدية في اللغات جميعا ولا سيما العربية . ثم يختم الرسالة بتلخيص لتقسيم لمصاحكات إلى ثلاثة أقسام : النكتة Commic Wit والهزل والدعابة hu-mour .

وكلها بما غسر عنده بالفصد في القوى النفسية . ولكن النكتة قصد في العاطفة التي يكثفها كتبها الكثير من محبوبي النفس ، والهزل قصد في الفكر والمنطق ، وأما الدعابة فهي قصد في الإحساس ، وأما تتطلب هذه الأمانين جميعا بعد سن الطفولة التي لا تعرف المفارقات المضحكة ولا تفكر على تفكير النكتة ولا تحتاج إلى الدعابة لتشعر بالسعادة .

والى هنا يبدو لنا أن الأمثلة التي استشهد بها رائد المدرسة النفسية الحديثة لا ينطبق عليها تصويره في جميع الأحوال . وأن القصد في الشعور أو التفكير قد يتحقق بالنكتة أحيانا ولكنه لا يشتتها ولا هي متوقفة عليه .

ولسرح إلى نادرته عن اليهودي الذي قابل زميله في المطار وسأله عن وجهته فصرح له بذهابه إلى كراكاو وعتب عليه زميله لهذا الكذب لأنه كان

سيذهب فعلا إلى كراكاو ولم تحر العادة بذكر الوجهة الحقيقية في إجابة أمثال هذا السؤال .

فلا قصد في هذه السادة ولا ادخار ، وليس فيها موضع لزيادة في المقال أو لانتباه . ولكن بصحت السمع لأجبا تدخته تجربة ليوم لهذه المسألة فإن السامع يسمع رسوم على يكذب فلا يحضر سأل أن الكذب في عرف المتحدثين هو أخهر بالصدق الصراح . ثم يفاجأ بسبب اللوم فتكون المفاجأة عماد الفكاهة هنا كما كانت عماد الفكاهة في جميع النواذر التي استشهد بها فرويد من المعالطات أو التحريكات أو الأجوبة المسكنة . وليس في الجواب المنسك قصد في تشعير أو غيول . ولكنه مثل واضح للمفاجأة على الخصوص حين يكون السائل على ثقة من إحراج المستول فلا يلبث أن يأتيه لجواب السريع فيرتد الخرج إليه .

ويحوز لنا بعد هذه التعليقات الموجرة أن نفهم أن رأى برجسون ورأى فرويد لا ينافسان تفسير الضحك من الوجهة الجسدية كما أجمعه داروين في كتاب التعبيرات . وقصه سيسر في مثاله عن الضحك من الوجهة الفريولوجية وأبعد لا يعبأ عن ذلك التفسير في النهاية سواء كان سبب الضحك فكرة أو مشاهدة حسنة . لأن شحبه هي أن يتأثر الحسد به على النحو الذي ذهب إليه سيسر وداروين من قبل .

مفاجأة تحبس الفكر أو الشعور عن مجراه فيتحول عنه إلى العضلات ويبدأ الأثر في أسهل هذه العضلات حركة ثم يسرى إلى غيرها من عضلات الجسم كله إذا اشتد الياعث على الضحك .

ولا تفص من هذا ومن قول برجسون أن الضحك من الإنسان إذ تصرف في حركاته وقدره تصرف الآلة لصماء . فإن هذا التصرف يحتاج شيء به ستطره من إنسان عاقل تجري أعماله على حكم المنطق العظمى الذي طبع عليه الإنسان المسمى بالحيوان الناطق أو الحيوان المنطقي بعبارة أخرى . فحين ينتظر عملا منطقيا يرى أماما عملا آليا على غير انتظار أو على خلاف المتظر ، وهذه هي المفاجأة التي ترجع بنا إلى تفسير داروين وسيسر ، وقد صحت الإنسان من القناضن المفاجئة قبل شيوع الآلات وحلق له جهار الضحك قبل احتقاره التنبيه بالآلة .

وقول برجسون أن الضحك تنبيه اجتماعي لمن يظهرون عن آداب البيئة لا

ينفخ هذا السبب . لأنه فائدة من فوائد الضحك لا تفسر أسبابه ولكنها تدل على غاية من غاياته ، والفرق ظاهر بين الأسباب والغايات .

ويرجع بنا رأى فرويد إلى المفاجأة كما يرجع بنا رأى برجسون إليها . فإن استخدام الضحك أحيانا في « الاقتصاد الشعوري » هو أيضا من قبيل الفوائد التي يستفيد منها وليست الفوائد كما تقدم معطلة للأسباب .

وليس في المواد التي تمثل بها فرويد مادة واحدة تخلو من المفاجأة وتعينا عن تفسير سبنسر أو تفسير داروين ، فالجواب المسكت مفاجأة ، والحيلة التي ترتد على صاحبها مفاجأة ، والتخلص السريع بالمغالطة التي تحالف المنطق المألوف مفاجأة . وتكذيب الجواب الصادق لأن الصادق غير مألوف من صاحبه مفاجأة ، وسائر المواد التي نقلناها أو لم ننقلها ترجع بنا إلى علة المفاجأة من أقرب طريق .

وقد فرق الباحثون في الضحك بين كثير من المضحكات لاختلاف أسمائها كما تختلف كلمات السخيرة أو الاستهزاء أو الدعاية أو الفكاهة .

فإذا استرسل الناظر في تنوع هذه الفروق وجد في النهاية أنها تؤول إلى فروق بين أنواع المضحكين وليست فروقا بين أنواع الضحك في أصوله ، فالضحك كله مفاجأة تتحول بالفكرة أو الشعور عن مجراه .

ولكن السخيرة التي تؤلم الناس أو تكشف عيوبهم ومثالبهم هي ضحك الشرير الخبيث .

والاستهزاء الذي يتعالى صاحبه على الناس هو ضحك المتكبر الذي غلظت نفسه فلا يبادلهم الشعور . أو هو ضحك العايب الذي يستخف بكل شيء ويجد الناس وهو ناظر إلى جدهم بغير اكتراث .

والدعاية التي يشترك فيها المضحك والمضحوك منه هي ضحك القلب الطيب الذي يمر نفسه ويمر غيره بما يكشفه من هفواتهم أو يعرضه من نقائصهم ، فلا يحسون أنه يرفدهم بتلك النقائص أو يأخذ تلك الهفوات مأخذ الشمامسة والخيلاء .

والفكاهة التي تمثل لنا المضحكات هي ضحك الفنان أو الناقد الذي يصور لنا دواعي الضحك ويدع في تصويرها وتمثيلها ، فهو مضحك وليس بأضحك ، أو هو واضح الضحك وليس بموضوع للمضحكين .

وهذه كلها فوارق بين المضحكين وليست فوارق بين أنواع الضحك في الصميم

ومن الشائع جدا أن يفتخر ضحك شعور العنطة بعوقها على الآخرين . ولكن لا يسر أن يصحح من هذا إذا موحنا بالهزلة التي لا تتوقف في موقف نص فيه أما يحكمه سبب لعبها هذا هو قد أدت من تلك الشدة وأوقعت بها

ومن هذه الهزلة مدحضة ضحك الساسة والأمراء حين بلغهم إفلات نابليون من جزيرة ألكا وعودته . وربما وهم يحسون أنهم وضعوه في القفص وحسبوا بعده يقررون مصير أمة لأوروبية من بعده .

ولو أنهم موحثوا بسور يحصرهم في مؤثرهم ويهددهم لساعته في أرواحهم أو عروشهم . ضحكوا كما ضحكوا وهم آمنون في تلك الساعة .

إلا أن هذا لا يعني أن مدحمة مصحكة ، وأن السامع البعيد يضحك بها وإن لم يصحك منها ساسة والأمراء المحاصرون لاشتغال شعورهم بالخطر المريب ولهذا بقي عصر مدحمة قائما في تفسير أسباب الضحك ويحتجب الأمر بحجب المدحمة في الشعور بالخطر ساعة المفاجأة ، ومن كان قريب شعله أخوف غير نضحك ومن كان بعيدا لم يشله عنه خوف عاجل يغطي على شعوره في تلك الساعة .

وينساوي في هذا الشعور ضحكك والشعور بالجمال والشعور باللذة ، فلو كان المعروف على مؤثر الامة فئة من في الهررة ربة الجمال وحاصرهم العدو لمهدد لحياتهم لشعورهم خطر عن الشعور بتلك الجمال العتان . وهو كاتب مائدة طعام جمعت من وطاب من أيديهم ثم حوصروا تلك الحصار لشغلهم الخطر كذلك عن الطعام والقوت

فلا يلزم إذن أن نقول أن الشيء المضحك هو الشيء المشوه الذي لم يبلغ درجة الإيلام ، لأن بلوغ درجة الإيلام يعرض عن شعور ولا يعطل الشعور بالمضحكات دون سواها

وصحيح بعد هذا من التفسيرات جميعا فنقول أن الضحك يحتمل عن مفاجأة تتحول بالمعكر والشعور عن محره . وأن الاختلاف بين السخيرة والاستهزاء والدعاية والضحك لا يلحق إلى إحث عن اختلاف في أنواع الضحك لأنه هو في لابه اختلاف بين المضحكين

الضحك في الكتب الدينية

في القرآن الكريم

لا يتقابل شعوران من طرفي التعظيم والاستخفاف كما يتفرد الشعور بالمقدس والشعور بالضحك في النعم البشرية

ولا يوجد لنا مرجع نعتمد عليه في هذه المقابلة الواقعية أولى - نرجوع إليه من الكتب المقدسة ، ولا سيما الكتب التي تسوق العبرة من القصص والأمثال وتروى الأخبار عن الضحك والضحاكين من محشفت الطباع والأمزجة وفي مختلف المناسبات .

وهذه الأخبار متكررة في القرآن الكريم . وكلها شاهد محكم للعالم النفساني يركز إليه في تفسيره لأطوار النفس البشرية ، حيث تبرر حقيقة الضحك مع سياق الكلام عنه في كلام مقدس ، ليروز الفارق بين الشعورين : شعور القداسة في موضعها وشعور الضحك بشئ معاه .

جاءت الإشارة إلى الضحك في القرآن الكريم مرة في قصة إبراهيم ومرة في قصة سليمان عليهما السلام .

ففي قصة إبراهيم يقول إبراهيم حين زاره الملائكة فلم يعرفهم وحافهم ثم بشروه بولادة إسحاق من زوجته سارة

« ... فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيحا إن هذا لشيء عجيب »

فهنا خوف فاطمشان بشئ مفاجئ على غير انتظار ، فتعجب لا تملك سارة أن تجهر به فتقول : إن هذا لشيء عجيب .

كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين المعاصرين في تفسيراتهم . تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطردا في مواضع مختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف ، ومعرفة بعد نكران ، وإشارة بما ليس في الحسبان من الولادة بعد سن

مبني وخيبة الأمل في الذرية زمنا طويلا تمتلح فيه النفس بأشتات من
نواعي الحزن والعزاء والغيرة والتسليم

ولانعني هنا كلمة « سرت أو كلمة استبشرت أو فرحت » في مكان كلمة
ضحك . فإن الضحك هو الأثر الملازم لهذه الحالة التي نشأكت وأصبحت
في قرارة النفس حالات متناقضات .

وجاء في القرآن الكريم عن قصة سليمان عليه السلام : « حتى إذا أتوا
عني وادي نمل قال نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمتكم
سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتيسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن
تذكر نعمتي التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه »

هنا هنا عوامل الضحك على مسيحيتها ماثلة في نقائصها الدقيقة
ومصاحباتها التي تقترب بها على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهي
مسألة محالفة في بعض أجزائها لمناسبة الضحك في قصة إبراهيم .

هنا العارض السامع بين ضلالة النمل وبين ضخامة الملك الذي أوتيته
سليمان .

وهنا رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة ولا
يشبه عنها ما تقول .

وهنا رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة
والعزة وتلهمه من الشكر والخشوع ، وكل ذلك أت من حيث لا ينتظر : من
نفة ضئيلة بحسب أن تحطم هي وروادها كلها ولا يشعر بهم سليمان العظيم . .

وردد الضحك في آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء ، فجاء في سورة
نجمين : « إن الذين أحرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم
يتعمدون وإذا غلوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لصالون
ومرسلوا عليهم حافظين واليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على
نار نار يطرون »

الضحك هنا مقترن بالتعاضد الخفي ، كأنما يحسب المستهزئون أنهم
سيعملون المؤمنين الذين يرون بهم فيستخرون منهم بالتعاضد بينهم ،
يضحكون إذا التفت إليهم المؤمنون على حين ضحاة فلا يملكون إخفاء العت

والسخرية ، كما يحدث دائما بين المتعاضدين ، لنا انكشفوا وامتنع عليهم
الكتمان والتمادي في الاستهزاء من وراء الأظفار

والضحك الأخير يأتي حين لم يكن في احسبان ، لأن الكفار كانوا
يضحكون فإذا بهم قد انقلب عليهم الأمر فهم ضحكة للضحاكين ، وهؤلاء
وادعون على الأرائك ينظرون .

وجاء في سورة الرخرف : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائكة
فقال إنني رسول رب العالمين فلما جاءهم بهيات . هم بها يضحكون »

وضحك المفاجأة هنا واضح من طلب الآيات نه إخلاف طر موسى عليه
السلام لأهم عبثوا به وهو ينتظر منهم بعد محبتهم بالآيات أن يؤمنوا فإذا هم
يعاجثونه بما لم ينتظر من أصرارهم على الكفران

ولا بد في كل ضحك من الشعور بالمفاجأة في ضحك أو فيمن يتعرض
للضحك . فهو شعور ملازم للضحكات من طرفيه .

وفي سورة النجم عن نوح عليه السلام : « وندم نوح من قبل إلههم كانوا
هم أظلم وأظنى والمؤتفة أهوى فعشيها ما عثر بأى آلاء ربك تتماهى هذا
نذير من النذر الأولى أرقت الأزفة ليس لها من رن الله كاشفة أقمم هذا
الحديث تعجبون وتضحكون ولا تكونون وأنتم سامعون فاسجدوا لله واعبدوا » .

ففي هذه الآيات يحسب الرسول أنه يأتيهم به يكبههم فلا يحسون داعية
للبيكاء ويستغربون فينتقل بهم الاستغراب من حديث الرسول عن نذير الأرفة
المطبعة إلى الأمان الذي يتصورونه ولا يحسون غيره . وبين هذين التقيضين
المتباعدين يتعجب القوم ويضحكون : موقف لا وسط فيه بين البيكاء
والضحك . فأما أن يحس السامع نذير الأزفة فيسكى أو يستغريها ويستبعدا
فيضحك تعجبا من كلام القائل واطمئنانه إلى ضمان الذي يقال لهم أنهم
مهلكون فيه .

والضحك من البلاء الذي لا يحسه السامع ويحس بغيته كالمضحك من
البلاء الذي يحسه ويحس أنه ناج منه ، وقد تكرر ذكر الضحك بهذا المعنى
فجاء في سورة التوبة عن المخلفين الذين فرحوا بغيدهم عن القتال : « فرح
المخلفون بقعدتهم خلافا رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في
سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يعقون
فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جراء بما كانوا يكسبون »

١٠٠- يعلب الحكمة ولا يجدها .

١٠١- سمح لشكر اسمه مستهزئ . عامل بفيضان للكبرياء .

١٠٢- مستهزئ . فينذكي الأحمق .

١٠٣- مستهزئ . يصير الأحمق حكيما .

١٠٤- عجزت بتناول المدينة ، أما الحكماء فيصرفون الغضب .

١٠٥- خكيم يقبل تأديب أبيه والمستهزئ لا يسمع انتهازا .

١٠٦- أكثر الكتب في العهد القديم إشارة إلى الهزء والاستهزاء .

١٠٧- نبيعة السفر كله ، لأن الأمثال سفر الحكمة والتجربة وهما

١٠٨- الذي يستخف صاحبه بجميع الأمور ولا يزال كذلك حتى

١٠٩- أيام إلى الاعتبار بالحوادث وبعد النظر في عواقب الأمور ، فإذا

١١٠- قال الشاعر العربي :

ضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

١١١- حسب العهد القديم كتاب تكررت فيه الإشارة إلى الاستهزاء كما

١١٢- الأمثال ، ولكنه جاء في بعض الكتب على نثر واختلاف

١١٣- وكانت قصة سارة في سفر التكوين أن تنم عن ضحكك

١١٤- والاستعظام ، لأنها لا تستهزئ بالبشارة ولكنها تستغريها

١١٥- لأول وهلة ، ولهذا يروى الإصحاح الثالث عشر عنها أنها

١١٦- سها وأنها أنكرت الضحك حين سمعت من ضيوف إبراهيم

١١٧- من صبغة الملام .

١١٨- من سارة امرأتك ؟ فقال : هاهي في الخيمة ، فقال إني

١١٩- من الحياة - أي الربيع - ويكون لساره امرأتك ابن . وكانت

١٢٠- من باب الخيمة وهو وراءه ، وكان إبراهيم وساره شيخين

١٢١- الأعم ، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء فضحكت سارة

١٢٢- أبعد فئائي يكون لي تنعم وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب

١٢٣- ضحكت سارة قائلة : أفبالحقيقة لك وأنا قد شخت . هل

يستحيل على الرب شيء ؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون

١٢٤- لسارة ابن ، أنكرت سارة قائلة لم أضحك ، لأنها خافت ، فقال لا بل

١٢٥- ضحكت .

١٢٦- المواضع التي ورد فيها الضحك في كتب العهد القديم إنما كانت نسيجا

١٢٧- تخلقية الاستهزاء والسخرية ، أو كانت بمعنى الاستهزاء الذي يرد الاستهزاء

١٢٨- على أصحابه ، ومن هذا القبيل ما ينسب إلى الإله أو إلى عباده الصالحين .

١٢٩- وبهذا المعنى نسب إلى أيوب حيث جاء في سفره : « لا ترفض تأديب

١٣٠- القدر لأنه هو يجرح ويعصب ، يسحق ويذاه تشفيان ، في ست شدائد

١٣١- ينجيك وفي مسع لا يمك بسوء ، في الجوع يفديك من الموت وفي الحرب

١٣٢- من حد السيف . من سوط اللسان ، فلا تخاف من الخراب إذا جاء .

١٣٣- تصحك على الخراب والمحل ولا تحشى وحوش الأرض .

١٣٤- وهنا يعود أيوب فيهزأ بالخراب والمحل بعد أن كان ضحكة لهما أو ضحكة

١٣٥- للهازلين الذين حسبه قريبة لهما وحسبوا ألا نجاة له من مصابه بهما

١٣٦- وبغيرهما من ضروب الحنة والبلاء .

١٣٧- لا جرم يقال عن الضحك بمعنى الاستهزاء . كما جاء في الأمثال : « أنه

١٣٨- في الضحك يكتئب القلب وعاقبة الفرح حزن » . أو كما جاء في الجامعة :

١٣٩- « إن الحزن خير من الضحك لأنه يكأبه الوجه يصلح القلب .

١٤٠- ولم يذكر الاستهزاء بخير في كتب العهد القديم إلا أن يكون ردا على

١٤١- المستهزئين وعقابا للسخرية والحق .

١٤٢- على أن الضحك قد ورد في العهد القديم بمعنى السرور مقابلا للحزن

١٤٣- مصحوبا بالعناء ، كما جاء في المزامير بعد رد السي « أننا . . . حيث

١٤٤- متلأت أمواتنا ضحكا وألستنا ترغا » .

١٤٥- ولا يلزم في هذا المعنى تفسير الضحك بالأسباب التي أجعلناها فيها

١٤٦- تقدم ، ولكنه - على هذا - لا يحلو من الشعور بالقبض بعد القبض ، إذ

١٤٧- ينتقل المرء من الأسر إلى الطلاقة ، فيعبر عن فرجه بالضحك والعناء

الإنسانية والفكرة

أيا ما كان القول في تعريف الضحك وتعليله . فمن أصح الأقوال مع جميع التعريفات والتعليلات أن الضحك - كما قال برجسون - ملكة إنسانية من طرفيها ، فلا يضحك إلا إنسان ، وما من شيء يضحكها إلا أن يكون [إنسانيا] في صورة من صوره ، ولو على سبيل التشبيه .

ولما أن نقول إن الإنسان حيوان صاحك كما نقول إن الإنسان حيوان ناطق ..

أفنعني بذلك أن كل إنسان يضحك بلا استثناء؟

كَلَّا . إِلَّا كَمَا نَعْنِي أَنْ كُلَّ إِنْسَانٍ يَنْتَظِرُ وَيَتَكَلَّمُ بِلاَ مَحْصَنٍ .

فهناك خرّس لا ينطقون ، وهناك بله لا يفكرون ، وهناك صغار أو جمع تتولاهم العرائز على نحو قريب من سيطرة العرائز على الأحياء التي لاتساوى البشر في الخلق أو في الذكاء .

ولكننا مع ذلك نقول إن الإنسان حيوان ناطق ونريد بذلك أنه ناطق «بالقوة» على اصطلاح المناطق ، أو بالاستعداد العام في أبناء نوعه كما نقول في عرف المصطلحين ، وكذلك يقال إن الإنسان حيوان ضاحك ومنه جماعات بدائية لا تفهم الضحك ولا تدرى موقعه من أعمال الناس ، ولا تميز بين المضحكات وغيرها من الأعمال الخالقة للمألوف ، لأن مخالفة المألوف بين أبنائها ظاهرة نادرة جدا لانطباعهم على العرف التوارث الذى لا يخالقه إلا وقوعا في محظور « المحرمات » ... مع قصورهم عن المقارنة التى تصبح منها القائض ومواطن الضحك أو الاستعراب .

ولعل هذا العجز عن الصلح في هذا الطور من أطوار الإنسانية معزز لقول القائلين أن الصلح خاصة إنسانية لا يشترك فيها عامة الأحياء فلا يصلح الإنسان وهو - بعد - قريب من أطوار الحيوانية في حكم الغريزة وعلية العادة على التفكير ، وإذا رجعنا إلى تفسير بوجسون في هذا الصدد فلا محل للمفاجأة هنا من جريان الإنسان على سنة الآلات في اطوار العمل بغير تفكير ، فإن القبائل البدائية المعرفة في الهمجية تجرى كلها على هذه السنة ،

أما في المعهد الجديد فقد جاء ذكر الصلحك في الإنجيل لوقا على لسان السيد المسيح حيث يقول وقد رفع عينيه إلى تلاميذه

وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى سُلَامِيذَ وَقَالَ : طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ لِأَنَّ لَكُمْ مَلِكُوتَ
اللَّهِ . طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْجُوعَاءُ ، لِأَنَّ لَكُمْ تَشْبَعُونَ . طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الْآنَ
لَأَنَّكُمْ سَتَضْحَكُونَ .

وهنا يأتي الصحك مقابل للبكاء ولا يحلو من دواعي الصحك في جميع
أحرف وأهمها تبدل الحلة والمقابلة بين السقيضين .

✿ ✿ ✿

وهذه الشواهد من هذه الكتب الدينية التي يقرأها المؤمنون بها ويقصدون ما بها - خير ما يستشهد به على طبيعة الصحة في حالات متعددة ، لأن هذه النوعية تبرز في مواضعها بوضوح واضح بما يقابلها من شعور الفداسة ، وتتنازع بين متباعدتين في الأزمنة والأمكنة والطبائع والأخلاق ، فنعلم أن الإنسان في كل زمان ومكان ، وأن المصالح الخاصة إنسانية تعم بني

ولا يكون فيها مخالفا للمألوف إلا الذي يشد بالنصرف على خلاف الوثيرة المطردة والسهج المرسوم .

أما بعد هذا الطور من الهمجية البدائية فالشعوب جميعا تعرف الصحك وتعرف واضعه وموضوعه بالتجربة العملية وإن لم تعرفه بالتفسير والتقسيم .. وريد بواضع الصحك من يحلقه بتمثيل المضحكات واحتراؤها وحكايتها كالمنايب والبدماء .

وتريد بموضوع الصحك من يكونون أصحوكا الناس بالغفلة أو النقص أو التصرف المتناقض الذي يحول شعور ناظره من وجهة إلى وجهها على حين غرة على الإجمال .

الأهم الضاحكة

وقد جرت عادة المعاصرين على وصف بعض الأمم بالفكاهة وتجهيد بعضها منها أو وصفها بجعلها وبطء الإحساس بها عند المقابلة بينها وبين الأمم «المكاهة» .

والثابت الذي لا شك فيه عن جميع الأمم أنها أخرجت نوع الفكاهة في جميع أجيالها ، وأنها في العصر الحاضر تمثل الفكاهيات وتعرضها على حمهرة من أبنائها ، فلا توجد أمة متحصرة لها تاريخ قديم حلت من بواع لمكاهة ومن آثار هؤلاء السوابغ في الآداب والفنون .

ولكنا نرى أن إحصاء النوابع هنا لا يفيدنا كما يفيدنا دليل الأمثال التي تداولها الناس ويتوارثونها جيلا بعد جيل ، فإن آثار النوابع قد تكون مقصورة عليهم وعلى فئة من قرائهم أو من القادرين على الاستمتاع بفكاهتهم ، يكن الأمثال الشائعة ترجمان صادق لتفكير الأمة وشعورها وطريقتها في التعبير عن تجاربها ، وهذه الطريقة تكاد أن تتفق في جميع الأمم أو تتقارب دية التقارب في المضمين والمرمى وإن لم تتقارب في اللفظ والتركيب ..

وهذه أمثال الأمم بين أيدينا تقتزن فيها الحكمة أو تأتي فيها الحكمة من طريق المكاهة على أسلوب تفتزج فيه السخرية بالتهكم والعطف والدعابة ، زحذ فيه الحكمة مأخذ الجند والمزاح في وقت واحد ، لأنها تشير إلى سرف الخطأ والحماسة إشارة التعقيب بعد مرور اللغات من الأمثلة والقرائن

والمناسبات ، فهي تتكلم في أمان بعد فوات الضرر وقيل وقومه على المقصودين بالصبيحة والتذكير .

وعلى سبيل التمثيل بالواقع نستشهد هنا بالأمثال في أمتين من أم المشرق وأمتين من أم المغرب ، يقال عن إحداهما أنها أمة ذات فكاهة أو أمة فكاهية ويقال عن الأخرى أنها لا تقطن للفكاهة وأنها اشتهرت بالجهامة وأخذ الأمور كلها بالجد والصرامة التي لا تعرف التورية والتلميح .

ففي المشرق أمة الغرس مشهورة بالسكات القديمة والحديثة من عهد الحضارة الكسروية . وأمة اليابان مشهورة بالكد واللب والإصصاب على العمل والتكليف .

وفي المغرب تقابل هاتين الأمتين الأمة الفرنسية في صفة الفكاهة والأمة الألمانية في صفة الجهد والجهامة .

وهذه طائفة من أمثلة الأمة العارسية - التي يقال عنها أنها فرنسا الشرق - تتبعها بطائفة من أمثلة الأمة اليابانية بغير اختيار بين صفحات الكتب الجامعة لأمثال هاتين الأمتين .

أمثال فارسية

المصدق والسكر زميلان

الحب والعطر لا يجتنيان

الخادم الجديد أسبق من العرال

ليس القلب مائدة تبسط لكل ضيف

الذهب والحجر من معدن واحد في الصندوق

الخائض عريان والإسكاف حاف

الحاهل لا تنفع فيه ، لا هو إنسان ولا هو حمار

يسع الجلد قبل صيد العرال

من دواعي الرثاء أن تنفق الذهب في الطلاء

لا لزوم للسماك في بركة بلا ماء

كلام يند ثناء والأمطار تلد الثلوج
ما للثمة عندما تستطيع لا أعرف وعندما أعرف لا أستضع

من مشرقين بعدها اثنا عشر من أمثال الأمة اليابانية في معارض
من حكمة حياة

حب كثير من سيكاد والعلاج

من ترى السعد من ثقب مرة

من يرى من صوب نصاديق لأسرار

من يرى من نصف الأخر والنصفان حمقى

من تقدمت خمافة رجعت الحكمة

منى موصف لانتير الموج فى أعماق الأبار

من شجرة تحمل لأر مطوحا

سكير يرى بعد خمر ولا المعيق يرى سلطانها

يرجع صحت بعد أذعه العصب

سلعة فى شحبة أرواه

حسب حلال ثبت فى حقول الآخرين

فرض عشت تعلم لماذا يصبح المقروص

أمة عربية أشهر أم العرب بالكاهة فيما تداولته الألسنة من شهرة

من مشرقات من أمثالها :

من مصلية بعيدا إلا أن يكون الغرور فى ركايبها

من من المتعلمين

من عرب سرعان ما تنكشف براءته

من من جمعة بلا أقدام

من من أحقق من أحوالهم المحدثين

البساطة المفتعلة تكلف مطلق

لا يقول عن الخط أنه أعمى إلا الذى لا يراه

تزيدنا السن حمقا كلما زادتنا حكمة

أصدقائنا الأعزاء يقولون كما نقول

الحب مملكة المرأة

لنقلب منطق لا يعرفه المنطق

الذى يحسن احساب لا يثق فى احباب

وتلى هذه الأمثال الفرنسية طائفة فى مثل عددها من الأمثال الألمانية
وهذه :

سفينة وتدها من الذهب تروى فى كل ميناء

إن لم تكن مطرقة فكن سندا

الكيس الفارغ لا يقف مستقيما

بطن فارغ أشجع من رأس ملآن

نصير نفى عشرات من البصير

من بدأ بالآلف انتهى إلى الباء

النحمة أقتل من الجوع

طريق الشحد لا ضلال فيه

أدم وحواء أكلتا التفاحة ونحن نطالب بفائمة الحساب

امراتان طبتان فى الدنيا : إحداهما ماتت والأخرى مفقودة

المرأة التى لا يصحبها أحد يصحبها الجميع

يصحب من الدوب من لم يعرف الجراح

وهذه اثنا عشر مثالا من كل أمة مشهورة بالفكاهة أو مشهورة بجهالة
غير أننا لو جعلنا عشرة أضعافها لما تغيرت نسبة المواقفة بينهم ولا حرج
منها بتفصيل حاسم لأمة على أمة حين نفتش فكاهة من تحربها

وشاح بين الفتيات زى الملابس القصيرة التي تكشف عن الصدور والسواعد والسيقان ، وعاد أحد الأزواج إلى بيته في بعض تلك الأيام فاستقبلته زوجته متهلة وقالت له : أتدري يا فلان ! إنهم يبيعون الفساتين بالتنسيط على عشرة أقساط . وقد انتهزت الفرصة واشتريت فستانا يوفر عليك سداد ثمنه الكبير دفعة واحدة

فتنظر الزوج إلى امرأته التي كادت أن تبدو أمامه بغير كساء ، وقال وهو يظهر الموافقة على مصف :
- أظن أن هذا هو القسط الأول من الثمنان !

النوادر القرقوشية

إن الاستعداد لتأليف الفكاهة التي تنفس بها الأم عن صدورها في أوقات الحرج يكاد يتساوى بين جميع الأم ومها - أو في مقدمتها - لأم التي لم تشتهر بالنكته واشتهرت على نقيض ذلك بأنها تجهلها ولا تحسنها .

ونقول إن هذه الأم في مقدمة الأم التي تؤلف السكات في هذا الغرض لأنها في الغالب هي الأم التي تبتلى بالخروج وتمز عليها حرية القول ، فلا يوجد في العصر الحاضر نظير لهذه النوادر في الأم التي تملك حرية النقد وتجهل بأرائها في حكومتها وحكمها ، ولا محل للمقارنة بين الشعوب الأوروبية في هذا الباب من أبواب الفكاهة لأنها لا تتساوى في ظروفه ودواعيه ، وإنما تستطيع المقارنة بين السكات المتقدمة والسكات التي شاعت في مصر على عهد « قرقوش » ودوتها « ابن ماتي » في كتابه المسمى « الفاشوش في حكم قراقوش » وليست كلها من تأليفه وابتكاره ، بل هي مما يشيع مجهول المصدر ثم يقاس عليه ويظل في طي الكتمان إلى حين .

وأحدى هذه النوادر أو النكات قد سبق لها تطير في النوادر التي استشهد بها فرويد وهي نادرة الحداد المحكوم عليه بالموت .

قيل إن غلاما لقره قوش قتل نفسه فحكم عليه بالشنق ، ثم تشفع لديه الشفعاء وقالوا له : إنه حدادك يجعل لك العرس وينحدمك ، فإن شنقته لم تجد غيره . فطر قره قوش ناحبه الباب ووقعت عليه عى رحل فداص فقال هذا القفاص لا حاجة بنا إليه ، فاشفقوه في مكان الراكدار ، وهي وطيفة العلام الحداد عنه !

وعلى هذا المثال تجرى النوادر « القرقوشية » التي أنبتها « ابن ماتي » في كتابه أو تناقلها الرواة على لسان غيره .

* ومها نادرة الرجل الذي أوثقه الناس وحملوه حيا ليدفنوه وهو يصيح في التعش مستغيثا بقره قوش ، فلما سمعه قره قوش ترك المشيعين يحصون به وقال له : ويحك ! لا أصدقك وأكذب مائة من ورائك !

* وقيل إن قره قوش نشر قميصه فوق الفميص من الحبل ، فتصدق بألف درهم وقال : لو كنت ألبسه ساعة وقوعه لانكسرت .

* وقيل إن جنديا نزل في مركب ، وكان به فلاح وزوجته وهي حامل في سبعة أشهر . فصدما الجندي وأسقط حملها فأخذ زوجها يتلابيه وفاده إلى قره قوش ، فتقضى على الجندي أن يأخذ الروجة ويطنمها ويكسوها ولا يعيدها إلى زوجها إلا وهي حامل في سبعة أشهر !

* وشكا إليه مدين أنه يجمع دينه ويذهب به إلى صاحب الدين فلا يحده ، ثم يأتي هذا فيطالبه ويلج عليه وهو خالي الوفاص لا يملك السداد ، فأمر قره قوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف لدين موضعه متى جمع المال المطلوب منه ، ولا يضع الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل .

* وكان لقره قوش باز يصيد به فطار الباز ولم يعد إليه ، فأمر باغلاق أبواب المدينة ليرجع الباز إليه إذا أغلقت جميع الأبواب !

* وشكا إليه الفلاحون بردا أصاب القطن وأتلفه والتمسوا منه أن يعفيهم من الضريبة ذلك للعام ، فأبى أن يعفيهم لأن لقطن إنما أصيب بالبرد لإهمالهم وقلة درايتهم ، ولو زرعوا معه صوقا لما أصاب التلف من برد الشتاء !

ومن باب هذه الحكايات عن قره قوش حكايات كثيرة يتناقلها المصريون عن الحكم التركي في عصر المماليك وبعد عصرهم إلى أيام الخديوى إسماعيل . . ومها أن حاكما تعود أن يقترض مالا من بعض الصيارفة ويكتب له وثيقة بها ثم يأمره بابتلاعها إذا جاءه في الموعد مطالبا بحقه . ولا يزال يمتصرص ويأبى السداد على هذا النحو وبضيف الدين الجديد إلى الديون القديمة حتى يئس الصيرفي من سداد جميع الديون ، فلما استدعى الصيرفي بعد ذلك جاءه ومعه ورقة شفافة ورجاه أن يكتب له الوثيقة عليها . . ليسهل عليه ابتلاعها في موعد السداد

• ومنها أن والياً كان يجمع الضرائب ولا يقبل عذراً في تأخيرها ..
ولا يرى يقول لمن يعتذر بقلة المال :

« ما ؟ أليس لديك أربعون ريالاً ؟ »

وعنه القوم من تكرر هذه « الأربعين » أن الرجل يملك أربعين ريالاً فلا يصدق أن أحداً يملكها مثله ، وتقربوا دفائنه حتى عثروا بالشرقة لجهينة ، أو لعلومة ، فلم يصرب الوالى بعدها أحداً بماطل في الضريبة ، وجعل يقول لكل معتذر :

« من أين لك أربعون ريالاً يا مسكين ؟ .. أنا لا أملك ريالاً واحداً من الأربعين .. »

ومنها أن والياً كان يصلى في أنعريات أيامه ويتبع الصلاة بالدعاء والحبس ويسأل الله أن يكفر له ذنوبه لأنه قتل أربعة .

وسمعه زميل له فادعشه أن يستعظم هذا الذنب اليسير وينحب هذا الحبس من أجل أربعة قتلهم وهم في حسابه عدد غير كبير ، فقال له كانه يؤبه

« ألم تقتل في حياتك غير أربعة يا أخا ؟ »

قال : « لا يا صاحبي .. أربعة من الترك ، أما الفلاحون فلا عداد لهم فيما أذكر »

وأشياء النوادر لو أحصيت لاجتمع منها مجلدات تروى على العشرات من أمثال كتاب الفاشوش عن حكم قهره قوش ، وهي جميعاً من تأليف أمة مشهورة من قدم الرمس « بالعمش » والسكتة الربعية ، وهذا قولت هذه النوادر سرد الأمم التي لم تشتهر بالفكاهة في أوروبا الحديثة ظهر من المقابلة أن الاستعداد متقارب أو متساو بين جميع الأمم ، وإنما تزيد السكتة المصرية بطبع خاص بها وهو الخمج من التفتيس عن خرج وبين وصف الحاكمين بالعفة والسلافة ، وسب هذا الفارق أيضاً راجع إلى الظروف الاجتماعية لا إلى طبيعة الصحت في النفس الإنسانية ، فإن الحاكم الذي يصيبه السكتة المصرية من غير أهل البلد فلا يصير من اتهامه بالعفة والسلافة واعتزاز الحكوميين على الحاكمين بالعفة والدربة ، ولكن هذا الاعتزاز في أوروبا

الحديثة يصيب الحكوميين كما يصيب الحاكمين لأنهم من عنصر واحد ، فلا حاجة في السكتة هذه إلى أكثر من التفتيس عن الحرج وتمثيل الحرج على الألسنة والأقلام

فكاهات عهود التحول

وأم من هذه الموسم الفكاهية التي تنفس بها الأمم عن صدورهم فكاهة أخرى أعم وأبقى أثر لأنها تشمل العهود المتحولة في حضارة واسعة تحيط بأمم كثيرة ، وتأتي هذه الفكاهة في أوانها حين تؤذن العهود بالتحول لتزعزع أركانها وزوال مقوماتها ، فينبغي لها نابغ ملهم في فن القدر الفكاهي يجمعها في « شخصية » مختصرة يجعلها هدفاً للسخرية والتسخيف أو يعمد إلى شخصية حيالية قائمة يلبسها ذلك الثوب ويودعها بقايا الماعق والتكلف والتقاليد الخاوية التي تتحلف بعد أجيال عدة في أعقاب العهود الدائلة التي أدنت شمسها بالأفول .

من هذه العهود المتحولة عهد المعتك وإشباع البطون والشهوات في القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد تصدى له الأديب الفرنسي رابليه Rabelais (١٤٩٤ - ١٥٥٣) فمثل ملوكه وأبطاله في شخصيتين خالدين إحداهما شخصية جارجنتوا Gargantua الذي يلتهم الأدميين والأنعام نهماً ولا يشبع ولا يكف عن الطعام ، والآخرى شخصية بicrochole الذي ضربت نفسه بالعدوان وهانت عليه النفس البشرية يزهقها لقليل من المال أو لنزوة من نزوات الساعة أو لغير شيء غير العتو والطفانيان

وليس أدل من اصطلاحات هذه المساويء في العهود الدائلة من آيات القرآن الكريم في سورة المجر حيث تنعى دول التباعة والفراغة والجبابة جميعاً في أمثال هذه العهود :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات المهاد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طعموا في البلاد فأكثروا فيها العسجد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لمبصر » إلى قوله تعالى : « بل لا تكرمون اليقيم ولا تحصون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حبا جما » .

وهذه المقاسد التي جمعتها هذه الآيات هي بعينها مقاسد العهد الذي يمثله جارجنتوا في الهم ويثله بكروشول في الفتك والعنوان . وكلاهما بعد ذلك باغ بهم على زيادة البغى في أحدهما وزيادة النهم في الآخر .

ومن العهود المتحولة عهد القروسية في القرن السادس عشر بين نبلاء لأسبان على الخصوص ، فإن هذا العهد قد شاخ وشاء حتى بطلت فيه النخوة والحماسة فأصبحت أكنزية خاوية يتعلق اغندوعون بظواهرها أو الحامدون على بقاء . وقد تصدى لهذا العهد كاتب أسباني من طراز رابليه هو سرفانتيز Cervants صاحب كتاب دون كيشوت الذي تضمن من أمثال العرب وكلماتهم الماثورة ما يكاد يسلكه في عداد الكتب العربية ، ولم يكن ذلك عبثاً أو لغواء بل كان من تمام التعبير عن العهد الأقل لأنه وفق شيوع التقاليد العربية بين الأسبان وأم القارة الغربية .

وبعاصر هذه العهود أو يسبقها بقليل عهد الألاعيب « الشريرة » الذي فشا بين الولايات الألمانية على أيام النبلاء الذين قيل فيهم أنهم نصف أمراء ونصف قطاع طريق . وتمثلت الألاعيب هذا العهد في شخصية القروي أولسبيجل Eulenspiegel كان كالمخ لمشوه في تصوره لأولئك العابثين المحتالين الأشرار ، ويقال إنه عاش في برونزويك وأن توماس مونر Murner (١٤٧٥ - ١٥٣٠) الذي جمع نواتره بعد ذبوعها نحو قرن من الزمان ، ولم تثبت نسبة الكتاب إليه ولكن ثبت ذبوع النواتر قبل ذلك بغير خلاف .

ثم جاء الكاتب البلجيكي شارل دي كوستيه Charles de Coster .

(١٨٢٧ - ١٨٧٩) فاستعار هذه الشخصية وأودعها روحاً فلمنتكية مرحلة كادت أن تجعلها نموذجاً للطبيعة الفلمنتكية في سذاجتها التي أذنت بالتحول عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وخاتمة المطاف في هذه المواسم الفكاهية كتاب «أعاجيب البارون مشهوارز» الذي ألفه الكاتب الألماني رودلف أريك راسب Raspe وأدار حوادثه أو نواتره على شخصية واقعية عاش صاحبها في القرن السابع عشر وعاد بعد خدمته في الجيش الروسي يصعد الأسماح بأخبار البطولة التي يرويها عن نفسه وحوار الشجاعة والدهاء التي امتاز بها في وقائع الحرب والسفارة بين الملوك والأمراء ، ومنهم أمراء المشرق في الأمسية والقاهرة .

نلت الشخصية الواقعية كارل مردريث مشهواره (١٧٢٠ - ١٧٩٧) نموذجاً لمحر المدعاة بين عصر السيف وعصر سدفية . ومع ضرورة على عينه أطار من منها الشرر فاطلق الرصاص . وحدث في الأعاجيب أنه أراد الخروج من القلعة المحصورة فركب القذيفة التي عصب عليها فعدت به أدرجها إلى حيث أراد ، وكانت أعاجيب مشهورة في حانة العهد الذي راجت فيه أباصيل البطولة بعد عصر العروسة وقبل عصر السلاح الحديث ، وراجت فيه على الجملة أخبار السباحات والرحلات عما يصفه العقل أو لا يقبل التصديق .

وهذه مكدهت ظهرت لمسات متشابهة بين غرب : أسبانيا وألمانيا وبسببها وتقلتها الأمم من امبريين ولشرفيين حيث تدب يدى القبر ، مختلف اللغات ، ومن هذه الأمم من اشتهرت بالثكفة ومنه من اشتهرت بحلها ونطه لالتفت إليها ، ولايسع السافد عند المصاحبة أن يرجع النكتة في إحداهم على نكتة في سواه ، فربما كان بعض سكات في أعاجيب مشهوارز أربع من سكات دون كيشوت ، وربما كانت نكتة الأسدية أحياناً أربع من النكتة لأماية ، وعامتها من نكتة واحد وصفة واحدة تؤدي رسالتها في مناسباتها وتسجل الحقيقة التي أسعرت عبثاً نقالة بين المكاهات القومية ودلت على أن الضحك - كالمثل - مزية إنسانية توحد بانقوة كما توجد بالفعل حيث يوجد الإنسان ، وأن حارسه يتنازع هو اختلاف بين الظروف والبيئات قبل أن يكون اختلافاً بين الصديق وأصول على أن طبع الإنسان العامة لا تحو الفوارق بين المجتمعات في موقعها المتباينة ، ولا تحو الفوارق بين مجتمع واحد في الأمة المحسنة وأصول متناقضة ، وليس من الطبيعي أن تكون أمة الودعة كالأمة كدحة ، أو أمة العيبة كالأمة المعيرة ، أو أمة التي صال عيدها بالخصرة ومزاجها كالأمة التي محصرت بعد وحشة أو مرت بها خصرة ناشئة منحصرة ، ولا تشبه في الحد ولا الفكاهة أمة تمرست بالمظالم والشدائد وأمة لم تتمرر بها ، لا عرصها في الآونة بعد الأخرى .

فمهما تنفق طبع الإنسان فستبقى بعد ذلك بقية للصبيعة في الجد والفكاهة ، ومن العلم والعمل ، وفي التفكير بالسوق ، وفي الضرورات والكماليات .

وفى نيلها من نام بالليل بله
 وليست تبل الشمس من نام بالضحى
 بها الفجر قبل الشمس يظهر دائما
 بها الظهر قبل العصر : قبل بلا مرا
 وبالشام لقوام إذا ما رأيتهم
 ترى ظهيرة كل منهم وهو من ورا
 بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه
 بها الشمس حال الصحو يبدو بها صيا
 ويسحر فيها الماء فى الصيف دائما
 ويبرد فيها الماء فى زمن الشتاء
 وفى الصين صينى إذا ما طرقتة
 يطن كصينى طرقت مساوا
 بها يضحك الإنسان أوقات فرحه
 ويبكى زمان الحزن قريبا إذا ابتلى
 وفيها رجال هم خلاف نائهم
 لأنهم تبدوا بلوجهم لحى
 والفصيلة الأخرى البائية التى يقول فيها : ...
 عجب عجب عجب عجب
 بقدر تمشى ولهها ذنب
 ولهها فى يزيها لمن
 يبدوا للناس إذا حلبوا
 لا تفضب يوما إن شئت
 والناس إذا شتموا غضبوا
 من أعجب ما فى مصر يرى
 الكرم يرى فسيه رطب
 أوسيم بها البرسيم كذا
 فى الجيزة قد زرع القصب

زهر الكتان مع البلبل
 ن هـ لوان ولا كـ نـ ب
 كـ يـ هـ و فى دير خلطوا
 بنصارى حركهم طرب
 وفناطر أم الخـ مـ ن بهـ
 ماء فى الجسفرة ينسرب
 والمركب مع ما قد وسقت
 فى البحر بطرف تنسحب
 والخبيصة قال الناس إذا
 بصت فالحل لها طيب
 البيض إذا جاعوا أكلوا
 والسمر إذا عطشوا شربوا
 الناقصة لا منقار لها
 والوزة ليس لها قنب
 فوز يمرض بشقبيته
 وينام عليه فبيثق
 والوز الفسقس يلفس
 كـ مـ ن فى المقن له رعب
 لابد لها من مسبب
 خزر . فزر . ما السبب ؟

وستمر بنا فيما يلى ألوان من النواذر المنسوبة إلى جمعا يحسب بعضها من
 نواذر تحصيل الحاصل ، وبحسب بعضها من نواذر الوهم أو القياس مع الفارق .
 وبعضها من نواذر المحال والمغالطة . وساعدنا هذا التقسيم على الرجوع بها إلى
 مصادرنا مع التحفظ والتمسك القرائن الأخرى من التاريخ والمناسبات
 والشواهد النفسية أو الاجتماعية .

جحا .. ونواذره

جحا . غير واحد

شيء واحد ثابت كل الثبوت في أمر جحا

ذلك الشيء الثابت - قطعا - أنه لم يكن جحا واحدا ولا يمكن أن يكونه .

لأن النواذر التي تنسب إلى جحا لا تصدر من شخص واحد ، ولا تزال نواذره اليقين باستحالة هذه المسألة واضحة في كل قرينة وكل رواية يحوز الاعتماد عليها في تحري الوقائع ومن تنسب :-

يستحيل أن تصدر هذه النواذر عن شخص واحد لأن بعضها يتحدث عن أناس في صدر الإسلام ، وبعضها يتحدث عن أشخاص في عصر المصور المعاصر أو عصر تيمور لنگ أو ما بعده من نهضور بأجيال .

ويستحيل أن تصدر عن شخص واحد اختلاف الشخصيات التي تصورها في مجموعها ، فمهما ما يكون التعميل و .. من جحا ، ومهما ما يكون فيه جحا صاحب المكارم والناظر والطيح السحر الذي يكشف عن الحفلة ويتندر على المبالغة ، ومن هذه الشخصيات من تمثل فيه المحاكاة بغير مرآة ، ومنها من يتحاشق ويبدو في كلامه وفيه أنه يتكلف ما يعمل وما يقول ستورا منه من يدعون الحكمة والدكاء

ويستحيل أن تصدر هذه النواذر عن شخص واحد لتساعد البينات التي تزور عنها سواء في الأمكنة أو العادات و / خلاف ، فقد يروى بعضها عن فارس ويزور بعضها عن سعد أو الجحار أو أسيا الصعري أو غيرها من البلدان الشرقية .

بل ربما قيل عن جحا أنه نصر الديار، التركي وقيل عنه أنه أبو الفصن العربي العزازي ، وقيل عنه أنه من الروم ، الهالكين كما يقال عنه أنه من أصحاح الحفلات والمكرسات من اللند ، من بالولاية وهم يحسرون بالهجر والملاحه

ويستحيل أن تصدر هذه النواذر عن جحا وحده كما ما كان ، لأنها تنسب - بعضها - إلى المجانين من أمثال جبنقة وبهلون أو إلى الأذكىء من أمثال أبي نواس وأبي العبيد .

وبما قيل الجده يعرض النواذر وتقسيمها فنقول إنه تقريبا لا نرجو أن نبلغ به مبلغ الحرم والتوكيد ، ولكننا لا نرى من أمارة البحث أن يعمل أو يعرفه المظهر ، فلهذا بعد كل ما يقال عن أحكامه و التفرعية « أصدق المرائين البصرة لنا في هذا البحث وما جرى مجراه من الروايات المشاهدة بلا إسناد تبلغ مبلغ الحرم والتوكيد .

لأن جحلا لم يصنع شيئا يزيد الشبهة في أمر القتل بقتله من الدماغي إلى البشر .
وأنه لم يصنع شيئا يزيل الشبهة بوضع الكرش في مكانه ، وكان لكل منهما
مسوحة مما صبح لولا الحماقة في الأب وفناءه .

والحل الأخير عن اشتهاار اسم جحلا حتى صبح به أبو مسلم بفسر لنا وضع
الزبانات عنه بين القرس أو اعتباره بينهم علما على الهلافة والقهامة يستنون
إليه ما شابه نواووه من المفكاهات العارسية ، فليس في خسر جحلا هنا خرافة بما
سب إليه أو نسب إلى غيره ، ولك أن تقلل هذا الأخير دون أن تحتاج بعد إلى
نيس أو تناول .

وبكلمة تقرأ من جحلا في غير كتاب الأمثال فلا تفرى كتابا واحدا يستفتي ،
عن شيء من التوفيق والتأويل ، لخرافة الأخبار التي تراءت عنه وتلقها الرواة
محدروا كيف يسمونها في موضعها بين أخبارهم ومن تروى عنهم تلك الأخبار
ومن الأمثلة على غير طائل في غرضنا من هذه الرسالة أن نحيط بكل ما
وصف به جحلا في كتب الألف العربي فإن الغصل منه كله أن تناقض لا يستقر
على قرار ، ولكنا نجترى بما كتبه ابن الجوزي إذ يقول في أخبار الحمقى
ومعلمين إبه . أي جحلا - دوى عنه ما يدل على أهلة ودكاه ، إلا أن المعلم
عنه عمل ، وقد قيل إن معنى من كان يماذيه وضع له حكايات ، وعن مكى
- إبراهيم . رأيت جحلا رجلا كيسا ظريفا ، وهذا الذي يقال عنه مكذوب
عنه ، أن له خيرا أن يار جحلا ويأرجوه فوضوا عليه .

وحكمه يسمع عن الرجل ما يدل على ذكاه وما يدل على تخيل ويوقون بين
الذكاه والتفيل فيحسبون أن نواو التفتيل من وضع المفترين عليه : ونشير ابن
الجوزي أناس يحسبون أنه من أصحاب الطالات والكراوات يكلمهم ولا يقيني أن
يؤخذ عليه كلامه بظاهره لأنه يعتمد فيه إخفاء الأسرار الإلهية بهذه
مصحكات وأختر عجلات ، وقد حسب بعضهم من السابيين رواة الحديث ثم
شكروا في حقيقة اسمه كما شكروا في حقيقة مسماه .

وأما بعد ظهور جحلا التركي ، الملقب بنوجة نصر الدين ، حامل كبايات صه
تنسب إلى رجل واحد وهي بما يمكن أن ينسب إلى عشرة متبايعين في الرومان
والكان والمعل والنراج ، وبعض هذه الحكايات متأخر إلى ما بعد اختراع
الساعات التي تعمل في الحبيب ومضيقها متقدم إلى أيام الصحابة والمنايين

ويؤاد على هذه الأحوال جميعا أن طبيعة الفكاهة تختلف بين تحصيل
الحاصل والقياس مع الفارق والمحاولة وأغفال ، ما يجوز أن يفتق حرضا في تأدية
أو قليل من المواهر ، ولكنه لا يتفق في المميزات والذات

ودعن قد نقرأ من جحلا في كتاب واحد فنفهم أنه شخص موجود أو قابل
للوجود ، لأنه متنافس الأخبار مطبوع في تفكيره وتفسيره على غرار واحد ،
ثم نقرأ عنه في كتاب آخر موى صاحب الكتاب مصملا إلى تسويج نواووه
المتناقضة باسنادها إلى المخلصين والمتخلصين ، أو بانتهاء الفترين على جحلا ،
للكتابة والتشهير

يقول البيهقي صاحب كتاب الأمثال . « هو رجل من وزارة كان يكنى أن
المعصر ، ومن حقه أن عيسى بن موسى الهاشمي موى به وهو يحضر بطر
الكوفة . جوسا مقال له مالت يا أبا المعصر ؟ فإن أنى قد دعبت يده
الصخرة ؟ فزاهم ولست ابتدئ إلى مكانها . فقال عيسى كان يسمى أن تحمل
عليها علامة . قال قد عملت ماذا ؟ قال سحابة في السماء كانت تقذفها
ولست أرى العلامة

« ومن حقه أيضا أنه خرج من موله يوما يلبس فبشر في دهليز منزله يقتل
فصخر به وجوه إلى شر موله فألقاه فيها غير أن أناه أخرجه ورضيه وخلق كسما
حتى قتله وألقاه في البئر ثم أن أهل القتل طامروا في سكة الكوفة يمشون
عنه ففناهم جحلا فقال : « في دارنا رجل مقتول ، فاطروا أمر صاحبكم ؟ فمدلوا
إلى موله وأولوه في البئر ، فلما رأى الكرش ناداهم وقال ما هؤلاء أهل كان
لصاحك قرن ؟ فصحكوا ورموا

« ومن حقه أن أبا مسلم صاحب الدولة لا ورد الكوفة قال لن حوله : ألكم
يعرف جحلا يبدعوه إلى عمال يقطب أنا ودعاه ، فلما دخل لم يكن
في المجلس غير أبي مسلم وقطير . فقال يا يقطب ألكم أبو مسلم ؟
ثم يقول البيهقي بعد ذلك : « وجحلا اسم لا يتصرف لأنه ممدول عن حاج
مثل عصر من عصر . يقال جحلا يجرحو جحرا إدارسى ، ويقال : جحيا الله
جحولك أي وسهك . »

وجحلا ها ، كما وضعه البيهقي ، شخصية معروفة متناصفة ، لعل الأخير
الذي جاء عن أبيه في خلال الكلام عنه بفسر بالرواية ما فيه من حلة الحماقة

نوادره ولغيره

وبعد ريت فيه - فقلنا - أن رجلا واحدا لا يمكن أن تصدر عنه جميع هذه الحكايات وهو كانت مسابقة متسابقة تدل على عمل واحد ومراج واحد وتحدث عن فترة واحدة وبيئة واحدة . فلنا إذا فرضنا وجود هذا الرجل وجب ألا يكون له عمل إلا أن يأتي بتلك النواذر والأصاحيب زوج ألا يكون لعشرائه وأصحابه عمل غير النقل عنه وإثبات هذه الأحاديث لمنقولة ، وهو ما لم يحدث في حياة الهداة الأعلام الذين تنقل عنهم الإشارات فصلا عن الكلمات .

فالمعجب أن تكون حكايات جمعا من رجل واحد ، ولك لا عجب على الإطلاق في توارده هذه الحكايات وتلاقيها من أبعاد المصادر . ومهما يحظر على الناس من عربة فالواقع بربل كل غرانه فيه ويرى أن هذا المص من الحكايات وما هو أغرب منه - يتلاقى من أناسي أوروبا إلى أناسي أفريقيا إلى أناسي القارة الآسيوية على امتدادها

ومثال ذلك قصة تروى عن جمعا وعن أبي نواس وعن رابليه الفرنسي الذي تقدمت الإشارة إليه ، وفحواها أن باحرا بحيرا رأى طارفا فقي . يتبع بالخمر العمار على رائحة شوائه أو طيبه فطالعه شمس هذه الرائحة ، ومار انصبر في أمره حتى أنقذه حلال المشكلات بحل من مبيل دعواه ، لأنه بد أمامه قطعا من الدراهم وقال له خذ رنين هذه الدراهم ثمننا لرائحة شوائك !

ومن الذي روى هذه النادرة عن أبي نواس ؟

لم يروها كتاب بغداد أو دمشق أو القاهرة ، بل رواها الكتب الإنجليزية Ingram في كتابه عن أبي نواس وأسطيره كما سمعها باللغة السواحلية واللغة العربية في أفريقيا الشرقية ، وهذه ترجمة القصة كما معناها في كتاب عن أبي نواس ، قال إنجرام ما ترجمته بحرفه على وجه التقريب :

« إن تاجرا ذبح معزة ومربه مسكين فجلس إلى جانب القدر لعله يستنقع الخبز القفار باستنشاق رائحتها ، ثم لقي التاجر فقال له : إليك يه السيد قد أحسنت إلى أمس إذ محنت رائحة معرنتك فاصطعبت بها هبنا . فأخذ التاجر يتلايه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت الكهبة من لحمها ، فقد اختلستها أنت إذن ولا تدري . وساقه إلى هارون الرشيد - وقد كان شديد الحباية للتجار - فحكم على المسكين بتفريعه اثنتي عشرة روية يأخذها التاجر

لثنا سكة ذبيحته ، وخرج المسكين يبكي لأنه لا يملك فلسا من هذه الغرامة ، فوجد أبو نواس في الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكاؤه ، ووعده أن يساعده ، ثم أعطاه اثنتي عشرة روية وأوصاه أن يغسل بها إلى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاءه إلى المجلس ورأى المسكين بعد الدراهم فأخذها منه ورثها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعنت ربها ؟ قال : نعم ، ومد يده إلى الدراهم يريد أن يقبضها ، فرده أبو نواس وصاح به : حميت ، لقد وصل إليك الثمن رتين برائحة ، فإذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حري أن تملأ يدك من رنين دراهمه ، ورثت الرقيات للمسكين ، وانصرف إلى داره .

هذه قصة تروى في سواحل أفريقيا الشرقية ، وتحدثون فيه بالروبيات وهم يذكرون بقود بغداد ، وهذه النادرة بشيء من التصرف فيها تروى في قصص جمعا وتروى في قصص رابليه .

ومن النواذر ما يتوارد في خرافات اسوب وحكايات ألف ليلة ، كحكاية الحمار والثور مع صاحب الزرع ، وقد جاءت في أوائل ألف ليلة بالمعارة الآتية : « اعلم يا ابني أنه كان لبعض التجار أموال ومواش وكان له زوجة وأولاد وكان الله تعالى أعطاه معرفة الحيوانات والطير وكان مسكن ذلك التاجر الأرياف وكان عنده في داره حمار وثور فأتى يوما الثور إلى مكان الحمار فوجده مكتوسا مرشوشا ومي معلقه شعير مغربل وهو راقد مستريح ، وفي بعض الأوقات يركبه صاحبه حاجة تعرض له ويرجع على حاله ، فلما كان في بعض الأيام سمع التاجر الثور وهو يقول للحمار هنيئا لك ذلك : أنا تعبان وأنت مستريح تأكل الشعير مغربلا ويخدمونك وفي بعض الأوقات يركبك صاحبك ويرجع وأنا دائما للحراث والطحن ، فقال له الحمار : إذا خرجت إلى الغيط ووضعوا على رقبتك الحاف فارق ولا تقم ولو صربوك وامتنع عن الأكل والشرب يوما أو يومين أو ثلاثة فربك تستريح من التعب والجهد . وكان لتاجر يسمع كلامهما فلما جاء السوق إلى الثور بعلفه أكل منه شيئا يسيرا فأصبح السواق يأخذ الثور إلى الحراث فوجده ضعيفا فقال له التاجر : خذ الحمار وحرثه مكانه اليوم ، فلما رجع آخر النهار شكره الثور على تفصلاته حيث أراحه من التعب ذلك اليوم فلم يرد عليه الحمار جوابا وتدم أشد الندامة ، فلما كان ثاني يوم جاء المزارع وأخذ الحمار وحرثه إلى آخر النهار . فلم يرجع الحمار إلا مسلوخ الرقبة شديد

الضعف . فتأمله الثور وشكره وحمده ، فقال الخمار : أعلم أنى لك فاصح . وقد سمعت صاحبنا يقول : إن لم يقيم الثور من موضعه فاعطوه لجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعاً وأنا خائف عليك وصحتك والسلام . فلما سمع الثور كلام الخمار شكره وقال : فى غد أسرح معهم . ثم إن الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه . فلما جاء النهار خرج التاجر وزوجته إلى دار الثور وجلسا ، فجاء السواق وأخذ الثور وخرج ، فلما رأى الثور صاحبه حرك ذنبه . . وبرطع فصحك التاجر حتى استلقى على قفاه .

هذه القصة جاءت متصلة بغيرها فى ألف ليلة وليلة لمناسبة تخرج وراءها مناسبة أخرى على الأسلوب المطرد فى تسلسل الروايات بألف ليلة وليلة ، ولكنها جاءت فى خرافات أيوب متفردة ، على اختلاف المغرى ، بالعبارة التالية :

« كانت معزة وخمار فى حوزة صاحب واحد ، وكانت المعزة تمار من الخمار لأنه كان وافر الطعام يكفيه ويفيض منه ، فقالت له : إن حيانت نصب دائم ، تدير الطاحون وتحمل الأثقال ، فأصبح لك شأن تجمع يوماً وتسقط فى حمرة تستريح بعدها ، فعمل الخمار بنصيحة المعزة وأصبحت راحته إصانة بالعة من جراء سقطته ، وأرسل صاحبه فى طلب البيطار ليسأله رأيه ، فوصف البيطار للخمار مرقاً من طحال معزة وقال إنه دواء صالح لمعالجة دائه . فذبحوا المعزة لداواة الخمار .

«والمغزى من هذه الحكاية أن من نصب فخاً لغيره جر البلاء على نفسه» وفى خرافات أيوب نوادر أخرى يقل فيها التحوير ويتقارب فيها المغرى ، مما تناقله المشارقة عن جحا وأمثاله ، ومنها ما لم يرد فى الخرافات القديمة كأنه أصيب إليها بعد عصر أيوب أو بعد العصر المفروض له والخرافات ، ومنها ما هو قديم منقول عن الحكمة الموضوعية على ألسنة الحيوان ، وهى شائعة فى الشرق من الصين والهند إلى البلاد العربية على اتساعها وتباعد أقطارها .

ولا نرانا فى حاجة إلى انتظار عصر المطبعة أو عصر التأليف وتداول الكتب بين الأمم لتحليل هذه النوادر بين الحكايات فى المشرق والمغرب ، وبين القارات الثلاث من العراق إلى الأندلس وفرنسا إلى أفريقيا الشرقية . فإن انتقال هذه النوادر على طرق الرحلات والقوافل أسبق جداً من كل تأليف أو طباعة . وقد كان الرحالة يطوفون البلاد من أقصى العالم المعمور إلى أقصى ولا

سمر لهم فى الرحلة أشهى ولا لذل على حنكة السائح وطول مهده بالترداد على البلاد من أحاديث الحكمة والفكاهة وأطوار الناس وغرائب الأقطار .

خذها شرودا فى البلاد مقيمة صمراً الذى سمر وزاد مسافر

بدأ سمعت القصة فى بغداد لم يكن بعيداً عليها أن تسمع فى بلاد الشمال من أوروبا أو بلاد احب من أفريقيا مع قوافل الرحالة والسائح الذين يسفرون بها إلى سهرانهم ويتأصسون عليها بين المأثور عن أقوامهم وأوطانهم ، وليس العجيب أن تسرى هذه النوادر هذا السريان المستفيض بين مرامى السياحة ومطامح السفر ، بل العجيب أن يكون للرحالة والسائح حديث غيرها فى لياليهم الطوال كلما فرغوا من أحاديث العمل وما إليه .

ولا ينتظر منا بعد هذه الفوضى الجحوية أن نبت فى نسبة النوادر كلها أو بعضها إلى صاحبها . لأن صاحبها غير واحد ، ولأن أصحابها المتعددين ضروب من الخلق تصلح النوادر لأحدها كما تصلح الآخر ، ولكننا نستطيع أن نقسمها على ثفة إلى أقسامها الواضحة من حيث الدلالة أو من حيث « الدور » الذى تؤديه ومنها ما يمثل الدكاء والحكمة ، وما يمثل البلاء والحماقة ، وما يمثل التباه والتعاق أو التغايب ، ولا يقع اللبس كثيراً بين هذه الأقسام أو بين هذه الأدوار .

وستختار فيما يلى عشرين نادرة فى كل قسم من هذه الأقسام أو كل دور من هذه الأدوار ، ثم تتبعها ببعض المراتب التى تساعدنا على نسبتها إلى أقوامها مع التحفظ والتنوع فى هذه النسبة الجزافية ، وأما النسبة إلى الأحاد من أصحاب اسم « جحا » أو غير أصحابه فمعرض لقراءتها الممكنة بعد ذلك على قدر المستطاع .

٦٠ نادرة

نواذر الذكاء والحكمة

١. آل خبيرة

كان جمحا يتولى القضاء ، فجاءه رجل يستغيث به لأنه وجد طنابوره المسروق ، مع بائع فى السوق ، وأراد أن يأخذه منه فادعاه السارق لنفسه وأنكره ، فأرسل جمحا فى طلب البائع المتهم ، وسأل صاحب الطنبور عن شهوده ، فجاءه بشاهدين ، أحدهما صاحب حانته ، والآخر ماجن متعطل بغير عمل .. وشهد الشاهدان بأبهما يعرفان الطنبور ويعرفان أنه للمدعى ، وعلامته أن فيه كسرا بأعلاه ورباطا بأسفله ، وليست مفاتيحه محكمة لشد والحركة . وطابقت العلامة وصف الطنبور ، ولكن السارق طلب تزكية الشاهدين وقال إن شهادة الحمار والماجن لا تقبل فى الشريعة .. قال جمحا : « نعم . وأما حين تكون الدعوى على طنبور فالخمار والماجن أصلح الشهود » !

٢. من راقب الناس

كان لجمحا ولد يعصيه كلما أمره بعمل ، ويقول لأبيه : « وماذا يقول الناس عنا إن عملناه ؟ » ..

وأراد جمحا أن يلقنه درسا ينفعه ، ويعلمه أن رضا الناس غاية لا تدرك فركب حماره وأمر به أن يتبعه ، ولم يمض غير خطوات حتى مر ببعض النسوة مشتتمته وقلن له : « أيها الرجل ! أما فى قلبك رحمة ؟ تركب أنت وتدع الصبي الصغير يعدو وراءك ؟ »

فزل جمحا عن الحمار وأمر انته بركوبه ، ومضى مسافة غير بعيدة ، ثم مر بحماعة من الشيوخ يستشرقون ، فدق أحدهم كفا بكف ، ولعنهم إلى هـ الرجل الأحمق ، وهو يقول ويعيد . « لئلا هذا يفسد الأساء ، وتعموا عقوى الآباء . أيها الرجل ! تمشى وأنت شيخ ، وتدع الدابة لهذا الولد ، وتطمع بعد ذلك أن تعلمه الأدب والحياء ؟ »

قال جمحا لولده : « أسمعت ؟ تعال إذن نركب الحمار معا » .

وما هي إلا لحظة ، حتى مر بهما جماعة من أصدقاء الحيوان صاحوا بهما :
« أما تتقيان الله في هذا الحيوان الهزيل ؟ أتركبانه معا ، وكل منكما يرن من اللحم والشحم ما يبد على وزن الحمار ؟ »

قال جمحا لولده : « الآن نغشى معا ونرسل الحمار أمامنا ، لنلنن سوء القالة من النساء والشيوخ ، أصدقاء الحيوان »

وما هي إلا لحظة أخرى حتى مر بهما طائفة من « أولاد البلد » الخبيثاء فجعلوا يعبثون ويقتلون لهما : « والله ما يحق لهذا الحمار إلا أن يركبكما أو تحملاه وترجلاه من وراء الطريق » !

فمال جمحا إلى شجرة ، وأخذ منها فرعاً متيناً وربط فيه الحمار ، وحمل الفرع من طرف روث الطرف الآخر على كتف ولده . فبدأ البلد كله وراء هذا الركب العجيب . وإذا بالشرطي يعض هذا الزحام ليسوقهما إلى لبيمارستان ..
قال جمحا لانه في طريقهما مع الشرطي . « هده يا بني عاقبة من يستمع إلى القال والقليل ، ولا يعمل عملاً إلا ابتغى به مرضاة الناس » !

٢. احصاء المناققين والرقعاء

كان جمحا دائم الشكوى من أهل بلده ، يقول لكل من لقيه منهم أو من الغرباء عنهم أنهم كلهم مناققون رقعاء .

ولامه هذا وراجعه ذلك ، فعمد إلى إقناع اللائمين والمناقضين بأسلوبه في الإقناع . أسلوب المشاهدة والعيان ، فحلح باب الدار وحمله على ظهره وقال لأول منافق له في تشهيره بأهل البلد : « تعال معي واحسب » ! وعند منعطف الطريق صاح به صائح من أهل البلد وهو يضحك : « ما هذا الذي تحمله على ظهرك يا جمحا ؟ »

قال جمحا لصاحبه : « هذا واحد : أتراه لا يعرف الباب المويل العريض الذي يسأل عنه ؟ »

٣. انصاع تعمل الأرجل

حمل جمحا أوزة مشوية إلى الأمير . وغلبه الجوع ورائحة الشواء في الطريق ، فأكل إحدى رجليها

ثم وصعها بين يدي الأمير ، فسأله عن الرجل الناقصة أين ذهبت ؟

قال : « لم تذهب إلى مكان . . . » . ثم توجه برحمة جمحة في هذا البلد .
ثم تقدم بالأمير إلى قاعدة القصر وأشر به صياد . قائم على قدم واحدة
كمادته في وقت الراحة ، فدعى الأمير صياد . . . وأمره أن يشد على سرب لأور بعصاه ، وما كاد ينحدر حجر سرب . . . بعدوه وهاك على قدميه .

قال الأمير : « رأيت ؟ إن أور هذا سيدنا حمر عديمين ولم يخلق بقدم واحدة » !

قال جمحا : « مهلا أيها الأمير . . . » . ثم توجه إلى إنسان بهذه العصا ليجرى على أربع » !

٥. ماض الله وسدين

جس جمحا يبيع زيتونه مساومه حمر . . . في الريتون الشم الذي طلبه ، وقالت له : « إذا أردت أن نبيع زيتونك . . . » . ثم توجه إلى أخبرتلك به مؤجلاً ، فأنت تعرف زوجي وهو فلاح من دلال » !

وتناولها جمحا زيتونة ، لتذوقها ويحدد حمر . . . فوجده من الشم ، فاعتذرت بأنها صائفة لأنها مرضت من . . . ثم توجه إلى شهر ومضان !
قال جمحا : « الآن بطل الخلاف ، لا مساومة ، تأجيل . . . أتراك تماطلين الله سنة ولا تماطلينني إلى يوم القيمة » !

٦. تمور في الاحرة

وسأله تيمور لنك الطاغية المشهور : « أين . . . » . كون مشواي في الآخرة يا حوجة نصر الدين ؟ » .

فقال جمحا ولم يتردد : « وأين ترضى أن تكون ، إن لم تكن مع جنكيز خان والاسكندر ومرعون والمروذ ؟ »

٧. ثمن طبعه

وسأله تيمور لنك ، وقد أحده معه إلى . . . ، وحلح ملبسه ، لا مثزرا يديره على وسطه : « بكم تشتريني الآن . . . » . صت عليك في السوق يا حوجة نصر الدين ؟

١٢. المصنوع

وأقبحه بعض معارفه في الطريق فقال له : « أنى رأيت الساعة رسولاً يحمل مائدة حافلة بالطعام لآخر » .

قال جحا : « وماذا يعني » ؟

قال صاحبه : « أنهم يحملوه إلى بيتك »

قال : « وماذا يعنيك » ؟

١٣. التقوى الخفية

وسكن في دار ، فشكا إلى صاحبها أنه يسمع فرقة في مسجدها

قال صاحب الدار : « لا سمح إله يسبح إله »

قال : « وهذا الذي أشتاء ، تتركه رقة فيسجد علينا » !

١٤. حدود الأبوة

ورسل جحا : « هل يولد للرجل بعد بلوغ الستين » ؟

قال : « يجوز » !

قبل : « وبعد بلوغ الثمانين » ؟

قال : « يجوز »

قبل : « وبعد بلوغ المائة » ؟

قال : « نعم ، إذا كان له جار في العشرين » !

١٥. العمامة المفارقة

وعرض عليه رجل كتاباً بالفارسية ليقرأه فتعامل برودة الخيط ، ورد له الكتاب ..

قال صاحب الكتاب محمداً : « وعلام إذن تضع هذه العمامة على رأسك كأنها الرحي » ؟

فطع الشيخ العمامة ، ووضعها جانباً ، وقال له : « تترك العمامة فأسألكها ، فإنها صاحبة العلم الذي تبعه » !

١٦. تعويد الخراف

ورفع رجل جحا : « على قماء بمرض الطريق يريد أن يستخر منه : فأخذ

قال : « بخمسين ديناراً » .

قال تيمور : « ويحك ! إن ثمن هذا الخنز خمسون ديناراً » .

قال جحا : « وهذا هو الثمن الذي حسبته » !

١٨. الحساب المبهوم

ورأى تيمور أن يصائر أموال الحاكم بمدينة « آق شهر » هاتمه باحتلاس أموال الديوان ، وأبشراً الحاكم بذهبه بالحساب المكتوب على دهان الديوان المملط .. فأخذها تيمور من يده وصرقها وأمره بابتلاعها ، ثم أحال حكم المدينة إلى الخوجة قصر الدين .

وحال موعد الحساب فجاءه الخوجة قصر الدين بجلود مطوية نشرها فوجد في عليها رقائق من الخنز مكتوباً عليها الحساب بالخلوى .

قال تيمور : « ما هذا » ؟

قال الخوجة : « هذا الذي يعتمله جوفى يا سيدي . لأننى شيخ فإن ولست حتى ضليماً كحماكمك القديم » .

١٩. أليهما أحب إليه

وكانت له زوجتان ، فجلس معهما يتسامر ، وطلب لهما أن تخرجه ، فسأله : أليهما أحب إليه

قال : « أليهما معاً حينئذ إلى قلبي » !

فالتفتا : « لا ، أنك لا تستطيع أن تصحك مما يهده المرارعة ، وأمامك هذه الحركة سعيك في إغراق إحداهما ، فمنا تلقى بها هي الماء الآن » ؟

وحال في أمره هنيهة ، ثم التفت إلى الزوجة الأولى وقال لها : « أذكر أنك تعلمت السباحة قديماً يا عيرى » !

١٠. المكان الأضيق في الجسرة

ورسل : « أليهما أفضل » السير خلف الجبازة ، أو السير أمامها » ؟

قال : « لا تكن في الغمش ، وسر حيث تشاء » .

١١. العدة الأخيرة

ورسل : « وماذا يستقبل المساح إذا برل هي الماء » ؟

عالم : « يستقبل المكان الذي عليه ملاسه » .

جحا بتلايمه إلى القاضي ولم يقبل منه اعتذاره بالخطأ فيه ، لأنه ظنه من أعدائه الذين يمزحونه بمثل هذا المزاح الثقيل .

وكان الرجل العايب من معارف القاضي فأحب أن ينجيهِ من العقاب ، وحكم جحا بأن يصفه كما صفعه أو يتقبل منه عشرة دراهم على سبيل الجزاء ثم التعويض .

وطمع جحا في الدراهم فسأل القاضي المدعي عليه : « أمتع الدراهم » وطمع صاحبنا لعرض القاضي فقال : « كلا ، ولكنني أحضرها بعد قليل من بيت »

وأذن له القاضي بالإصراف لإحضار الدراهم ، فذهب ولم يعد . وطال الانتظار على جحا ، فأدرك حيلة القاضي واقترب منه كأنه يهمس في أذنه ، ثم صفعه صفعه عبيدة ، وقال له وهو يصرف : « إذا عاد إليك الرجل بالدراهم ، فحذرها حوالة مني إليك ! »

١٧. دعوى بدلتها

وادمي الولاية ، فسأله السامعون عن كرامته ، فقال : « أتريدون مني كرامة أعظم من علمي بما في قلوبكم جميعا ؟ » قالوا : « وما في قلوبنا ؟ »

قال : « كلكم تقولون في قلوبكم أنني كذاب ! »

١٨. من يدعي

واستمار حلة كبيرة من جاره . ثم أعادها إليه وفيها حلة صغيرة . فسأله جاره : « وما هذه ؟ » قال : « هذه بنتها ، ولدتها عندنا » يتقبلها جاره ولم يسكر عنه

ثم استماره مرة أخرى ولم يردّها ، فلما سأله عنها ، قال : « البقية في حياتك ، أنها ماتت عندنا في النفاس ... رحمها الله »

قال صاحب الحلة متعجبا : « أيوت النفاس ؟ »

قال جحا : « من يلد ميت ، وقد يموت هي النفاس » .

١٩. ثمن الصلوة

وعطش في طريقه ، وهو بمقطع من الماء في الصحراء ، فمر به أعرابي

مسرّ قرية ، عرض عليه جحا أن يبيعها إياه فلم يقبل بأقل من خمسة دراهم ، مسرّها جحا ، وجلس يأكل من طعام دسم كان معه ، واستغفب الأعرابي رعدة من الطعام ما أشبعه وأظمأه ، فسأله شربة من القرية ... فلم يقبل من بأقل من خمسة دراهم . . . وباع الشربة بثمن القرية !

من الحمار :

صاح حماره ، فأقسم ليبيعه إن وجدته بدينار واحد . ثم وجدته وندم على حله ، ولم يشأ أن يثبت في قسمه ، فاحتال عليه باليمين ، ويحفظ على نفسه ثمن الحمار ، وهرض الحمار في السوق وقد ربي عقه حذاء قديما ، فجعل ينادي عليه : « الحمار بدينار والجداء بعشرة ... » ، ولا يباعان على انفراد !

... نكرام قليل

أمّره الوالي أن يعد مجنين البلد ، فقال : « بل أعد لك العفلاء . ومن هم كثيرون لا يحصرون » .

... يقضي على القاضي

حاج الشرطي يرجلين إلى مجلس القضاء ، وجحا عند القاضي يحدثه في مص شنبوه ، فمرص الشرطي قضية الرحبي ، وقال إنه وجد في الطريق بين بيتيهما أقذارا متنوعة وادعى كل منهما أن جدره مطالب بإزالتها ، لأنه هو الذي وضعها في عرض الطريق .

وأراد القاضي أن يعيث بجحا ليسخر منه ، ويفضح دعواه ، لأنه كان يدعي عدم ويتصدى للإساءة ، فأحل عليه القضية ، وسأله أن يقضى فيها بالحق بين مرحلي

فقل جحا مقترح القاضي ، وسأل الشرطي : « هل كانت الأقذار أقرب إلى دار هذا أو دار ذاك ؟ »

قال الشرطي : « أنها كانت في الوسط بينهما » .

قال جحا : « إنما يزيلها إذن مولانا القاضي ، لأنها في الطريق العام » . ومولانا القاضي هو المسئول عن المدينة ؟

(1) Laughter incorporated

بؤادر الءماقة والبلاهة

١. عنى قدر الوضوء

ترضاً ءءا ، ولم يكفه الماء لإتمام وضوءه ، وبقيت رءله اليسرى بغير وضوء ، فقام يصلى برءله اليمنى ولا يضع اليسرى على الأرض فسأله : « ما بالك تقف على رءل واحدة ؟ » .

قال : « الأءرى غير متوضئة » !

٢. أنا مكرر

رأى رءلا فى الطريق لا يعرفه ، فتبسط معه فى الءءء ، ورفع الكلمة بعد عارة أو عارتين .

فمءب الرءل وسأله : « ألك بى معرفة فترفع الكلمة هكءا بينى وبينك ؟ » ..

قال : « بل ءبئك أنا .. لأن ثابء كءابى ومءبئك كمءبى ، ولكك لست أنا كما علمت الآن ! »

٣. شروء روءة

وءاول أن يبيع بقرة له فأعياه بيمها ، فرأه ءلال فى السوق ، فكملى له ببيعها إذا أسلمه إياها وأعطاه الءءل المعلوم ، وقبل ءءا ، فأخذ لءلال يناءى على البقرة ، ويءكر منافعها ومءاسنها ، ومنها أنها ءلى فى مئة أشهر ..

ثم ءاء الءواطب إلى ءاره يحطون بئته ويطلعون إلى مءاسها ، فتذكر الصعة الئى روءت سوق البقرة ، وقال للءواطب :

« هى كما ترون وزياة .. أنها ءلى فى شهرها الءاس » .

٤. يربء كءابراء

ورأوه يركب ءمارا ويءمل ءرءه على كئفه ، فضءكوامنه ورموه بالءبء والءءابة ، وقال له قائل مءهم : « ألا تعرف كيف تصء الءرء ءءك أو أمامك ولا ترءق نفسك بءمله وأمء راكب ؟ » .

قال : « عءل من الله ، أراضى الءمار من ءمل نفسى بأن أربءه من ءمل ءرءى » !

٥. أكبر ءوءة

وءان فى منءله فاكهة ، فسأله بعضهم : « ما هذا الءى فى منءلك يا ءءا ؟ »

قال : « لا أقول لكم . ولكنى أعطىكم أكبر ءوءة إذا عرفتموه » .

قال السائل : « أنه ءوء ؟ »

فانطلق قائلًا : « أى مءعون أنىاكم بأمره وهو مصرور » !

٦. أءبة مءولة

ورأى بعضهم أن بئعه فقال له : « إن عرفت ما فى منءلى أعطىءك واحدة منه ءكمى لءمل عبة مليءة » .

قال : « صفة لى ولا ءذكر اسمه » .

قال صاءبه : « أنه أبصر وفى وسطه صفار » .

قال ءءا : « الآن عرفت .. أنه لفت ءشوءوه ءزرا » !

٧. الءء لله

وضاع ءماره فطلق يصبء وهو يسأل الس عته : « ضاع الءمار والءء لله » .

قيل له : « فهل ءءمء الله على صباءه ؟ »

قال : نعم ، لو أننى كنت أركبه لضعء منه ولم أءء نفسى » .

٨. أربءون يوما من رمضان

وءان من عاءته إذا صام يوما فى رمضان أن يلقى بءصاة فى ءرة ، ورأته ابئته فألقت فى الءرة ملء كئبها من الءصى ، وهى تظن أنها ءساعءه .

وسأله الءبران يوما : « كم بقى من رمضان ؟ » .

قال : « أما ما بقى فلا أعرفه ، ولكنى علم بما مضى من أيامه » .

ثم عء الءصى ، فزاء على مائة وعشرين ءصاة .

قال بيه وبين نفسه : « لو أبأءهم بهذا الءءء لسخروا منى ، ولكنى أنزل به إلى أربءى »

ثم خرّح لهم يقول : « مضى من الشهر أربعون يوماً على التفريق » .
فتضاحكوا منه ، وتضاحك هو منهم وهو يقول : « إنه شهر طويل على
المثالمين ، فماذا تصنعون لو أنبأتكم بالعدد الصحيح ؟ » .

٩. الشمس والقمر

وسأله : « أيهما أنفع : الشمس أو القمر ؟ » .

فلم يتمهل وأجابهم بيقين : « أنه القمر ولأمراء » .

فسأله : « ولم ؟ » .

قال : « لأن الشمس تطلع في النهار حين يستغنى عنها الناس ، وأما القمر
فلا يطلع إلا في الظلام على حين الحاجة إليه » .

١٠. البحث في المور

ورأوه يبحث في أرض لا شيء فيها ، فسأله : « هم تبحث ؟ »

قال : « حاتم سقط مني » .

قالوا : « وهل سقط هنا وليس في الأرض أثر للخوام ؟ » .

قال : « بل سقط في الزقاق الذي هاك » .

قالوا : « وما بالك لا تبحث عنه حيث سقط ؟ » .

قال : « رأى جدوى للبحث في الظلام » .

١١. حمار مموخ

اشترى حماراً واقتاده بزام طويل ، فتغمله لصان ، ذهب أحدهما بالحمار ،
وربط الآخر نفسه في مكان .

راثمت جحا فرأى إنساناً في مكان الحمار .

فاستعاذ بالله ، وسأله : « أين الحمار ؟ » .

قال : « أما الحمار ، أعادني الله إنساناً يبركك كما كنت بعد أن سخرت
حماراً لدعاء والدتي على » .

شارك له جحا ، وأطلقه وهو يوصيه بطاعة أمه ويحذره العودة إلى إغصابها ،
وحر العصب من الله عليه بدعائها .

ثم عاد إلى السوق بعد برهة ليشتري حماراً غير ذلك الإنسان المموخ فرأى
الحمار بعينه في يد الدلال ، فقال على أذنه وهمس فيها قائلاً : « لن تنفك
بركتي بعد مسحتين ، ولن أشتريك وأنت بهذا العصيان ! » .

١٢. نصف بصف وتم الدار

وكان يشارك على دار ، فساع بصعها الذي يملكه ليشتري بشفته نصف
الآخر ، وتحلص له الدار بغير شريك !

١٣. دابة على رمح

ونام في الحلاء ومعه عكاز طويل ركزه ووضع صرة القود على رأسه نكيلاً
ينالها أحد .

فرأه لص وعرف فعلته . فأخذ القود ووضع في موضعها روث دابة وتيقظ
جحا ، فوجد الروث في مكان الصرة ، فلم يعجب لسرقة القود ولكنه عجب
للدابة التي استطاعت أن تصعد على عكاز لتصنع به ذلك الصنيع . .

١٤. مكافه معقولة

وحمل إلى تيمور رمانات باكرة ظهرت في غير أوانها ، فرضى عنه تيمور
وأرضاه .

ثم طمع في جائزة أخرى ، فجمع رؤوساً من اللفت ليهديها إليه . فقال له
بعض جيرانه أن اللفت لا يصنع لإهداء الملوك ، فاذهب إليه بنحبة من التين
فهو للطف وأحلى .

واستكر تيمور أن يهدي إليه التين وهو يملأ الأسواق ، وأحب أن يكف جحا
عن طمعه ، فأمر الخند أن يقدفوه بالتين واحدة بعد واحدة .

فوقف جحا يتلقى الضربات على رأسه وعلى وجهه وعلى عينيه وأفعه وهو
بضحك ويدعو للحمار الذي أسدى إليه النصيحة الصادقة .

واشدت عجب تيمور من ضحكه ودعائه ، فأمر الجند أن يسكروا عن صريه ،
ليسله عن سر ذلك الضحك وذلك الدعاء .

قال : « إنه سر عظيم ، لو كان اللفت في موضع هذا التين ، لتهشم رأسى
وتفقت عيناي » !

وسألوه : « ما طالع نجمك ؟ » .

قال : « ولدت والشمس في برج النيس » .

قالوا : « لا يوجد في السماء برج يسمى برج النيس ، ولكلك تعنى برج الجدى » .

قال : « فمن مولدى إلى اليوم لا يصبح الجدى تيسا ؟ » .

١٦- كيف يعرف بيته ؟

وانطفأت شمعة في داره فطلبت منه زوجته أن يناولها إياها من يمينه قال :
« يا حمقاء ! وكيف أعرف يميني من شمالي في هذا الظلام ؟ » .

١٧- أدب مع التلاميذ

وركب بقلته مستديرا رأسها فسأله تلاميذه : « لماذا لا تمعدل في ركوبك يا مولانا ؟ » .

قال : « هذا هو الاعتدال ، أدير ظهري لرأس البسطة ولا أديره لرؤوس
الادميين ! » .

١٨- يسمع صوته من بعيد

ورأوه يوما وهو يغنى ويجرى ، فسألوه : « ما بالك تعنى وتجري ؟ » .

قال : « أحب أن أسمع صوتي من بعيد ! » .

١٩- لماذا ينتشرون ؟

سألوه : « لماذا ينتشر الناس في جوانب الأرض ، ولماذا يذهبون ذات اليمين
وذاات اليسار كل صباح ؟ »

فتأمل قليلا ثم قال : « لو ذهبوا إلى ناحية واحدة ، مات بهم الأرض
وانكسرت بهم في هوية ليس لها قرار ! »

٢٠- لماذا لا تأكله ؟

ومر بفرن تصاعد منه رائحة الخبز الساخن . وهو يشتهي ، ولا يقدر عليه
خلو يده . فأتاه إلى الفرن وسأله : « ألك كل هذه الرعمان ؟ » .

قال : « نعم » قال : « ولماذا لا تأكلها يا أحمق ؟ » .

نوادير التعاطف والتسالة

وهذه نوادر منسوبة إلى جحا تتوسط بين الحكمة البينة والحماسة البينة ، لا
يقنع من حنيتها على النودر التي يصطع فيها الحدة ويتكلمها كأنه يمثلها
ويستعيرها ، ولكننا نختار من هذه النوادر كما نختار من النوادر التي لا تحسب
نصيبتها من الحكمة ولا تحسب من الحماسة ولكنها تتوسط بينهما وتغلب عليها
هذه مرة وتلك أخرى ، وكلها قد بسست إلى جحا كبست بموضوعها أو
بمغزاها إلى ذوى السمعة الفكاهية من أمثاله .

١- أحمق وأحمقان

رأه الضحان يأخذ من قفص الناس ويضع في قفصه ، فصاح به : « ما هذا يا
جحا ؟ »

قال جحا : « لا تؤاخذني بإنني رجل أحمق » .

قال الضحان : « لو كنت أحمق لأخذت من قفصك ووضعك في قفص
الناس ! »

قال : « ويحك ! أنا أحمق واحد ، ولو صنعت كما تقول لكنت أحمقين ! »

٢- ما لا يحضر

ولقيه بعضهم يلهو فقال له : « أنت هنا تلهو وأمرأتك تقطع إحداهما
لأخرى ؟ » .

ولم يشأ أن يدع مجلته فقال الرجل متفاحكا : « أقالت إحداهما للأخرى
شيث تتعق بالعمر ؟ »

قال : « كلا » .

قال : « إذن لا داعي للوساطة ، فإنها مشكلة سليمة ! »

٣- مرق مرق المرق

جاءه ضيف ربيع ومعه أرنب فأكرمه وشيعه كما استقسه بالخمر
والتحية

ثم مضى أسبوع وجاءه ضيف من بلدة صاحب الأرنب وقال له أنه جده
القريب .

ثم مضى أسبوع أو أسبوعان وجاءه من تلك البلدة جيران كثيرة يزعمون جميعاً أنهم جيران الرجل في داره أو حقله أو دار أحد من أهله .

فاجلسهم جميعاً على السباط وجاءهم بطست كبير فيه ماء عال ، وأوما إليهم قائلاً : « تفضلوا فكلوا من مرق مرق الأرنب ، يا جيران جيران صاحب الأرنب المشثوم ! »

٤. يسر ولا كاللامل

وصعد على شجرة يقطف من ثمرها فحصر صاحب البستان وفاجأه وهو على تلك الحال .

قال صاحب البستان : « من أنت يا هذا ؟ » .

قال جحا : « أنا بلبل أنقل على الأغصان » .

قال صاحب البستان : « أسمعنا إذن من غنائك أيها البلبل العجيب » .

فتغنى جحا بصوت لا يسمع ولا يشبه تغريد البلبل ، وقال صاحب البستان : « ما هذا بتغريد بلابل » .

قال جحا : « هاتها واسمعها ، ألم تقل إنني بلبل عجيب ؟ » .

٥. مصيبة أكبر من مصيبة

ونظر تيمور إلى وجهه في المرآة بعد أن تنعم وتعود معيشة القصور فانبهض لمطره القبيح ، ولح وزيره انقباضه فأخذ يواسيه على عادة الوزراء ، يسرى عنه ، وقال له فيما قال : « مثلك أيها الخاقان الأعظم لا يأسى على جمال الوجوه وقد أعطاك الله بسطة في الجسم وبسطة في القوة وبسطة في الثروة والسلطان ، وإنما يأسى على جمال الوجوه النساء وأشياء النساء من الرجال » .

فانبطت أسارير الطاعية ، وابتسم راضياً عما قاله الوزير ، ولكنه التفت إلى الخوجة نصر الدين فرأه يبكي ويستحرق في البكاء .

قال له : ما خطبك يا خوجة نصر الدين ؟ أنا صاحب المصيبة تحليت وأنت تأتي أن تتسلى ؟ » .

قال جحا : « معذرة يا مولاي ، إن مصيبتى أكبر من مصيبتك أضعاها مصاعفة . أنت نظرت إلى وجهك مرة فانبهضت ، فماداً أصنع أنا الذي أنظر إليك بالليل والنهار مرات ؟ » .

٦. نقل

دخل لص منزله وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية الأثاث حتى دخل وراء اللص إلى داره .

ونظر اللص وراءه فرأه يدخل الدار ، فسأله : « من أنت يا هذا ؟ » .

قال : « أنا صاحب هذه الدار التي نقلت إليك » .

٧. كنههم محقون

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شكواه ، فقال له : « أنك محق في شكواك أيها الصديق » .

وجاءه الصديق الثاني في اليوم التالي فعرض عليه شكواه فقال له كما قال لخصمه : « أنت محق أيها الصديق » .

وكانت امرأته تسمع القصتين فسحرت منه قاذلة

« يالك من منافق ، خصمان مختلفان ، وكلاهما محق في شكواه ؟ » .

قال : « ولماذا تعجبين ؟ أنت محقة أيضاً فيما تقوين ؟ » .

٨. تصيب الدنيا

وأراد أن يتزوج ، فبى داراً تتسع له ولأهله ، وطلب من النجار أن يجعل حشب السقوف على أرض الحجرات ، ويجعل خشب الأرض على السقوف ، فراجع النجار دحشا ، ولم يفهم ما يعنيه .

قال جحا : « أما علمت يا هذا أن المرأة إذا دخلت مكاناً جعلت عاليه سافلها ؟ أقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج » .

٩. حروف عسى عيه

وأرسله أبوه يشتري له رأس خروف مشوى بأقل من ثمنه ، فأكل في الطريق لسانه ، ثم راودته نفسه فأكل عينيه ، ثم أكل أذنيه ، ثم أكل شواته (حنطة رأسه) ومجحه ، وذهب به إلى أبيه جمجمة فخره .

فجعل أبوه يقلبها ويسأله : « أين مجحه ؟ »

فبقول جحا : « كان محبوباً بعير عقل »

فسأله : « ومن عيه ؟ »

فيقول جحا : « كان لسي » .

ويسأله : « وأين شوته ؟ »

فيقول جحا : « كان أفرع » .

ويسأله : « أين لسانه ؟ »

فيقول : « كان أخرس أصحم » .

قال أبوه : « فاذهب رده إلى صاحبه »

قال : « إنما اشتريته بقليل الثمن على البراءة من كل عيب » .

١٠. العصاب قتل الدب

وباول يسته الصغيرة جرة قملأها ، وحذرنا أن تكسرنا ، وأشرنا لئن كسرتها ،
ليصعقنا هكذا ، وأردف الإنذار على الأثر بصفحة قوية أبكتها ..

فنظر إليه عابر طريق ولامه على ضرب البست الصغيرة في غير جريرة ، وقال
له : « انضربها قبل أن تكسرها ؟ »

قال : « يا أحمق ، إنما اضربتها لتعرف لعم العقاب فتحذره ، وأما بعد كسر
الحرة فما المائدة من ضربها ؟ » .

١١. العادل الأكبر

سأله الأمير : « كم عيالك ؟ »

قال : « سبعة » !

فأعطاه لكل من عياله مائة درهم ، وخرج جحا ، ثم عاد إليه على الأثر وهو
يقول : « سبت واحداً أيها الأمير أنفق من مالي عليه كما أنفق هؤلاء » .

قال الأمير : « من يكون يا ترى ؟ »

قال : « أنا أكبر عيالي أيها الأمير » .

١٢. يكلون بالصرب

وذهب إلى قونية ، فاعترضه في طريقه دكان حلوى تعرض فيه أصناف
الفطائر والفاكهة المسكرة صابحة شهية فأهوى عبيها يأكل منها بلا استئذان ،
وأهوى صاحب الدكان عليه بالعصا يريد أن يحول بينه وبين حلواه ، فتغابى
جحا وراح يثنى على أهل قونية ، ولم يزل يقول : « بالكم يا أهل قونية من قوم
كرام ، تطعمون الناس بالعصا والكرباج » !

١٣. ماذا يفعل الحذاء ؟

وليس حذاء جديداً ، فنظر إليه بعض الشطار وأرادوا أن يحتالوا عليه
ليسرقيه ، فسألوه : « أتستطيع أن تصعد على هذه الشجرة وتأتي بشيء من
ثمرها ؟ »

قال : « نعم . فكم جعلتم ؟ »

فأعطوه ما تيسر لهم ، وانتظروا أن يغلق حذاءه ليصعد ، فلم يفعل ، بل صعد
على الشجرة ومعه حذاءه تحت إبطه .

قالوا : « وماذا تصنع بالحذاء على الشجرة ؟ »

قال : « إذا ألقيت إليكم الثمر فماذا يعنيكم من الحذاء ؟ .. أما أنا فلعلني
أحذلي طريق سفر من أعلى الشجرة فأذهب ولا أعود إليكم » .

١٤. لولاري كسي

وذهب إلى وليمة شيبب العمل ، فطرده الخدم من الباب فعاد إليهم بشيابه
المدخرة ، وعليه حلة من الخلل التي يخلعها عليه الأبرار ، فأكرموه وتقدموه إلى
مكان المائدة ، فغمس كفه في الصحن واحدة بعد واحدة ، وطفق يقول له
كأبه يساجيه : « كل ، كل يا كسي ، فلولاك ما وصلت إلى هذا الطعام ! »

١٥. ماذا أصاعت ؟

وقيل له : إن امرأتك أصاعت عقنها ، فأطرق يتأمل ، وقام إلى داره يبحث
فيها

قالوا : « ماذا تصع يا جحا ؟ » .

قال : « إنكم تقولون أنها أصاعت شيئا ، ولن يكون ذلك الشيء عقنها ،
فإنني لا أعرف لها عقلا تضيعه ! »

١٦. يبالدور

وقيل له : إن امرأتك تتردد على البيوت وتطيل المكث فيها .

قال : « غير صحيح ، ولو كان صحيحا لوصلت إلى دارنا » .

١٧. أصدق من الحمار

ورجاء بعض جيرانه أن يعيره حمارة ، فاعند له بدهايه إلى الغيط ثم نهق
الحمار وهو يكلمه ، فعابته الحمار قائلا : « ليس هذا حمارك يهق في الدار ،
وأنت تزعم أنه ذهب إلى الغيط ؟ »

قال : « سبحان الله ، تكديبي وتصدق الحمار » ؟

وساكن أمرائه ، وقد جاءه ما يروطن من اللحم : * لئلا يصلح هذا ؟ *

قالت : * يصلح لكل شيء * ١

قال : * فاطينى عليه إذن كل شيء * *

١٩. قسمة الله

واختاره قوم القسمة بينهم فسلكهم : * أترضون قسمة الله أو قسمة عبده ؟ *

قالوا : * بل قسمة الله * *

فأعطى أحدهم درهمين ، وأعطى الثانى دينارين ، وأعطى الثالث خافا ، وأعطى الرابع سيرا عليه خشية ، واستبقى سائر لفرقة بين يديه .

قالوا : * وبذلك أهدم قسمة الله ؟ *

قال : * انظروا حولكم تفهموا قسمة الله وحكمة الله * *

٢٠. مضموم موصوف

وظليت منه أمرائه أن يعود إليها فى طريقه من المسجد بدواء مضموم لعلهم الذى يؤرقهما بالبيكاه والعياح .

فماد وليس معه غير للكتاب الذى يقرأه

قالت : * لعلك نسيت الدواء ؟ *

قال : * معاذ الله ، هذا هو الدواء ، وقد جربته اليوم فى الكبار فنامو جميعا ، فغير به أنت فى الصغار * *

موازين غير محكمة

هذه الموازين الستون التى تقدمت فى الفصل السابق تصور لنا أقسام الموازين التى تنسب إلى بحما ، وقد تنسب إلى غيره ، ومنها ما ينسب من محكمة طاهرة ، وما ينسب من بلاهة ظاهرة ، وما ينسب من بلاهة مستترة بين المحكمة والبلاهة .

وتقدر ببعضها المادة التى تم تنسب إلى مصادر متعددة من المحكمة والحقق والمحققين ، وبعضها يترى عن أناس فى العرب الحديث كالمادة التى تروى من الشجار بين المرأتين ، فإن الأولى تروى عن تأليبون وطيبه والثانية تروى عن جولده سمحت الكاتب الإنجليزي الشهور الذى قيل فيه أنه أحقق الناس إلا حين يشارون لاسم فهو يحد من 'سكهم الناس

فيل أن تأليبون سأل طبيبه حين كان مشغولا بأمر ولاية العهد : * هل يولد للرجل فى الستين ؟ وهل يولد له فى السبعين ، وهل يولد له فى الثمانين ؟ * مكان جواب الطبيب عن ابن الستين نعم ، وعن ابن السبعين ، نعم فى المرة ، وعن ابن الثمانين أنه يولد له إذا كان له جدار فى العشرين .

وقيل إن امرأة جولده سمحت وأخته تشاجرتا وهو غائب عن المنزل ، فأدركه أحد جيرانه وأباه بأمر مدمه فشاجرة ، فسأله : * هل قالت إحداهما للأخرى أنت شوهاء ؟ قال إخبار : * كلا * . قال : إذن هى مشاهرة مأثومة * *

وقد سبقت الإشارة إلى توازن مشابهة بين المحكمة المصرية والفكاهة فى الجبر و'زوربا الوسطى ، ولا يصعب تحليل ذلك بتوارد الخو طر فى الجرب السسيط على سؤال واحد أو سؤالين ، وقد يحلل الكثير منه بإطلاق المريرين على التوازن التى برحمت لهم فى المرسى فى القرون الوسطى وقد يكون المنعابه من تلك الموازين إصفاة حيدة فى الكتب المنقوعة لم تتداولها السنة الناس قبل ذلك .

إلا أن السواد الذى لا شك فى مصدرها الشرقى كثيرة بين السواد المسيحية إلى جحا وأمثاله ، وهى على أبعلة توازن الزوجين والقضاة الدينيرى والعياجات الانتقيدية وروادر العياض والصلابة والعتاوى وما هو من قبيلها

بهذه الاشك فى مصدرها الشرقى من تخوم الصين إلى آسيا الصغرى وادى النيل ، فأين هو مبدل النسبة لمصحية بين كل هؤلاء والأقوام والأصهار والأقطار ؟

في النسبة التاريخية بعض المعايير النافعة على غير حسم ويقين . لأن
المادة قد تمتع في القرن الثامن أو الثالث وتصنف بعد ذلك لتوائم القرن الذي
نقلت إليه ، وما لم تكن مكتوبة في مرجع معروف التاريخ فلا سبيل إلى الحزم
نسبتها إلى زمن من الأزمنة على وجه اليقين .

والمعيار الآخر « تقريبي » كالمعيار التاريخي لا ينتهي بنا إلى الحسم ولا يسلم
من اللبس والاشتباه ، وذلك معيار الخصائص القومية التي تميزها بالطن وتقارب
الطن بينها وبين النواذر التي توائمها ولاتوائم غيرها . .

وقد أسلفنا أن طبيعة الفرس تلعب عليها الصورية والمحاولة الدبلوماسية ، وأن
طبيعة الترك يغلب عليها تحصيل الحاصل مبالغة في الواقع ، وأن طبيعة العرب
يغلب عليها الخيال والقياس المنطقي ، وتبالغ بها المكاهة فتنتج بها إلى الوهم
والقياس مع الفارق الواحد أبو الفوارق الكثيرة .

أفلا يعقل أن العبقرية التي أخرجت لنا القول بتسحير الجسد والأعضاء
لحالات المروح تخرج لنا في المكاهة - والمحاولة الدبلوماسية - قصة الأوزة التي
يتخلق لها الخوف رجلين والرجل الذي يتخلق له الخوف أربع إذا عدا وراءه من
يشد عليه بالعصا ؟

جائز أو راجح ، وهذا غاية ما هناك ، ومثلها نادرة الولد العاق الذي مسحته
دعوة أمه حمارة ثم عاد إلى الأمية ببركة الشيخ .

وكذلك يعقل أن تحصيل الحاصل يخرج لنا في بلاد الترك قصة المرأة التي
يقال لزوجها أنها تدور في البيوت ، فيأخذ بالواقع - المفرد - ويقول : لو صبح
ذلك لدخلت إلى بيتنا .

ومثل هذه القصة قصة الرجل الذي يصطنع التعمية ويعين أنه يعطى أكبر
« حوحة » في المدبل لمن يخبره بما فيه ، ومثلها قصة الرجل الذي يضربونه لأنه
يأكل الخلوى فيحمدهم لأنهم يكرهونه على الأكل بالسوط والعصا .

كذلك يعقل أن القياس مع العارق يخرج لنا نادرة الرجل الذي باع نصف
الدار ليشتري النصف الآخر وتحلص له الدار بنصفها ، فما كل شراء يجمع
للشاري بين البصفين ولكنه قياس مع الفارق لشراء على شراء والحمافة التي
أدخلت في روع صاحبها أن السحابة علامة صالحة للحفرة التي تحفر تحتها - هي

بعضها التي ترى على الرمح روثة فلا تصب منها إلا أن الدابة صعدت على
الرمح . لا يبقى عليها إلا البحث في خرق تصعد

هذه معايير تقريبية لا تأخذ بها ولا تهتم بها ، لأن إهمالها إهمال للدراسة
واسعة من دراسات العصر قابلة للمزيد من التوسع والأحكام .

وقد تعمدنا أن نختر بين النواذر السد حائفة من أشهر النواذر بين العامة
والخاصة في البلاد العربية ، لأنها اشتهرت حتى أصبحت علما على جعا دون
غيره من حمهرة الناس التي تتناقل النواذر - ولأحاجي من قم إلى قم ولا ترجع
إلى الكتب والأوراق ، فليس من الخائر أن سقطها من كتب ينور فيه الكلام
على حدى وما يسب إليه من النواذر والحدود ، ومعظم نواذر حمها من قبيل
هذه النواذر الساذجة في تأليفها وموضع حكمها فيها ، ولعلها ثلاثة أرباع
المجموعة التي بلغت قراءة ستمائة ، وعنده مصعة التركية كتبها إلا القليل الذي
تأثر من صدر الإسلام إلى أيام الدولة العباسية من كتب الأدب والعكاك .
وفيها من الأسلوب الأدبي والدوق العسى - ليس في معظم النواذر الشائعة
فإن هذه النواذر الشائعة أقرب إلى العدى من تتناقلها العجائز لتسبب الأحداث
ومن هم في مثل مدركهم من السدح وحيلاء ، وموضعها بين المحفوظات
للشفوية التي يسميها الغربيون بالمولكولور وضع من موضعها بين كتب الأدب
والعكاك المعنية .

جحا في الأدب

جحا في الأدب ، أو على الأصح البوادر الجحوية في الأدب لأن هذه البوادر على أنواعها موزعة بين زمرة من الحمقى والمحمقين بدأت الكتابة عنهم من القرن الأول للهجرة واشتهر منهم في الأدب العربي وهط يبلغ العشرة ويزيد غيرها ، منهم هبقة الأحقق وباقل العسى وأشعب الطفيلي وبنان الموسوس وأبو العبر لمحمدلق ومزيد المدينى والحموى الشاعر ، وغيرهم من المحتالين بالحماسة أو التطفل أو الخلاعة ، وليس فيهم من الحجة الجحوية ، لا اتساع كلمة العصة للاشتقاق بين غافل ومتغفل ومتغافل ، على حد ما بين هذه المشتقات من المعاني والألوان

وهؤلاء الذين وردت أخبارهم في كتب الأدب أرفع في طبقة «الذوق الفنى» من جحا في حمله بورد وأخباره ، فليس فيهم من يسف بأصاحبيكه إلى الصبائية أو السذاجة السخيفة كما يلاحظ على الكثير من نوادر جحا التي وصلت إلينا مضافا إليها نوادر المجموعة التركية ، وهي محيطة به وضعه الترك وما وضعه غيرهم من عامة الشعوب الشرقية الإسلامية ، وبعضه مما وضعه غير المسلمين من جيوش الترك العثمانيين - كالأرمن - ونسبوه إلى جحاهم المسمى عندهم باسم «أربى»

وعلة هذه المقاومة فيما أثبتته المؤلفون المتأدبون أنهم أسقطوا السارد الغث من النوادر ، ولم يثبتوا إلا ما فيه معنى وله طعم في مذاق الأدب والفن ، فلا نجد - مثلا - في تلك البوادر ما تحسبه من تأليف الصبيان أو أشباه الصبيان من السذج والجهلاء - وما فيه دليل على الغفلة أو التغافل فهو دليل عليهما بحق في عرف الدكى اللبيب ، وليس مما يكثر فيه الخط ليحسب من الغفلة أو التغافل في عرف تصغار والإعزاز

ولو كانت كل البوادر الجحوية من قبيل نوادر المزيدي أو الحموى لكانت طرازا من هذا الفن لا يعلله طراز في لعبة من الألعاب ، ولكانت بابا من أبواب الدراسات الصاعدة للمعاهدة العسية والموارص النفسية التي يعتمد عليها من يجد في البحث عن شواهد التحليل

فمن كلام الحمدوني حين لاموه على التحامق : « إن حماقة تعولنى خير من عقل أعرله » .

ومن أصحابك للزبد ، أنه هم بتطبيق امرأته فذكرته طول الصحبة ، فقال لها : « والله ما لك ذنب غيرها » .

من أصحابك أنه سمع من صيام يوم بمثابة صوم سنة . فصامه إلى الظهر ، وقال : « حصى من الثواب ستة أشهر ، نحسب منها شهر ومضان » .

اجتمعت ستمائة نادرة من هذا الطراز لكات كما أسنما دحيرة لا تخب دحيرة في آداب العالم ، ولكنها لا تجتمع بطبيعتها ولا مناص من أسنما بالسحف والهراء كلما تناقلها العديد الأكبر من عامة الرواة ، وأصافوا ما يحترعونه باجتهادهم على حسب مداركهم ، أو ما يستدركون به من النسيان .

كتب التى جمعت هذه النواذر المنتقاة تعد من أمهات كتب الأدب إلى النحلة العباسية ، ثم يعرض لها الإسفاف والابتذال فيما بعد ذلك من شيوخ والذيوخ أو من جراء الهزال والاضمحلال فى دور المهانة والجمود .

شهر هذه الكتب نشر الدرر للأبى والأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ، وأبى القاسم الراغب الأصفهاني ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وأخبار لابن قتيبة وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزى والعقد الفريد من ربه وقوات الوفيات لابن شاكر وذيل زهر الآداب للحصرى والمستطرف فى شمات الأوراق لابن حجة الحموى ، وحلبة الكميت للنواجي . ثم الطبقة كتاب الفاضل فى حكم قرقوش لابن عماتى وكتاب مضحك لابن سودون المجهول ، ويستطرد الإسفاف بعد ذلك إلى القرن الرابع مبهرة وفيه ظهرت مجاميع النواذر المنسوبة إلى جحا منقولة عن إخلاط فى كل أمة تناقلت هذا الاسم بين الأمم الشرقية .

الأدب الجعوى بعد النهضة الشرقية

دهر الأدب الجعوى بعد النهضة الشرقية الحديثة . فظهرت المؤلفات من سماع شتى ، يقتبس بعضها من نواذر لأغراض التعليمية ، بعضها هذه الشخصية لأغراض النقد الاجتماعى على طريقة من شحاتى والحكمة التى تحرى على لغة المجانين ، ويعنى بعضها

بالإحصاء التاريخى والاستقصاء فى تدوين الروايات والأسانيد ، ويرجع هذا الازدهار فى الأدب الجعوى بعد عصر النهضة الحديثة إلى العناية بإحياء الآثار السلفية كما يرجع إلى شيوع النقد الاجتماعى بأسلوب الجد والمفكاهة .

ولقد نبهت النهضة الشرقية أناسا من الأجانب المقيمين فى الشرق . كما نبهت الشرقيين . إلى استكشاف طابعه وملائحه وألوان شعوره وتفكيره ، فكان من هذه الألوان البادية هذا اللون من المكامة الشعبية التى تدور حول شخصية جحا ، الساخرة ونواذر التى يتداولها لشعب للسخر منها أو للسخر بها ، وقام الثانى بترجمة نواذر جحا إلى الفرنسية باسم « كتاب جحا الساذج » هما السرت عدها والبرت جوسيبوفيتشى Albert Ades and A. Josiponici الذى كان من موظفى القصر الملكى ومن حضروا بعض الدروس الإسلامية فى الأزهر الشريف ، وكان مولده بالقسطنطينية سنة ١٨٩٢ فكانت له معرفة بالتركية والعربية واطلاع على نواذر جحا فى مصادرها المختلفة ، وأما صاحبه البرت عدها فقد ولد بالقاهرة سنة ١٨٩٢ . وتعلم فى مدارسها وحضر بعض الدراسات الأزهرية ، وأمكنه أن يفهم النواذر فى لهجتها الشعبية أو لهجتها العربية الشبيهة بالشعبية .

وقدم الكتاب المترجم إلى قراء الفرنسية الأستاذ أكتاف ميربو Mirbeau بكلمة موجزة كتبها فى أثناء الحرب العالمية (٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٦) وقال فيها إن المؤمنين لا يشرحون شيئا لأن الحياة لا تشرح نفسها وما كان « جحا » إلا قلدة من الحياة الشرقية تعيش ولا تحتاج حيث تعيش إلى تفسير ، مأكوفات الحياة الدارجة بغير بحث ولا انتقاء ، وإذا بدأ فيها أثر من الفجائية فإنما ترجع هذه العجوبة إلى اختلاف الجيل مع تشابه الشخصيات وتكرار أمثاله فى كل جيل .

وما كاد هذا الكتاب يظهر بالفرنسية حتى ترجم إلى اللغات الأوروبية وأقبل عليه المثقفون لأنه معرفة يستزيدونها كما أقبل عليه عامة القراء لأنه يروقهم بفكاهته ووقائع الحياة الممثلة فيه ، ومن هذه التراجم ترجمة بالإنجليزية ظهرت باسم جحا الأحق Goha the fool أو جحا الغر « البسيط » .

وأحر ما ظهر من الكتب الأوروبية عن جحا كتاب معامرات بخارى الذى ألفه الكاتب الروسى ليونيد سولفييف Leonid Soloviev (سنة ١٩٤٨) وترجمه إلى الإنجليزية تاتيانا شيموبينا Shchunina فى هذه السنة ، اتخذ المؤلف من شخصية جحا فى هذا الكتاب داعية جوالا يضطرب فى البلاد

والنصيف . والأرجح أن الاسم مصحف من اسم بنشور Pontus
 أو بيلطس الذي حدثت في عهد ولايته محاكمة السيد المسيح . فقد
 كانت هذه الشخصية محور السخرية والإهانة في المرحلية الدينية التي
 كانت تمثل محاكمة السيد المسيح وتعرضُ عُدهاء في صورة زمرية يقابلها الضارة
 بالتهكم والاستهزاء . وقد يكون وصف القرقوز بالسواد كما يسمى باللغة
 التركية منقيرا فيه إلى هذه المرحلية والسوداء أو مأخوذا من الستار الأسود
 الذي يحجب لدى والألاعب . وهكذا تستقل الشخصيات والمطرب
 الشعوب ثم تعزل في كل أمة مصانصها مد بيان وسائل الانتقال
 وبأن كان مصدر هذا الشئ فهو باق إلى اليوم يضمن الناس إلى حكماته
 منقرعة متعقدة ، متطورة ، كما يقول مصطلحات وراثنا وقلما يعيهم أن
 يتبعوها إلى جذورها القديم



ومن أطوار الشعوب في تناقل العيون أو الموضوعات الميعة أن مهمة الشرق
 سهبت الأوروبين إلى تراث الشرقيين القديم وأن عناية الأوروبين سهبت إليه
 أناسا من الشرقيين الذين يكتبون باللمات الأوروية ، فوضع الأستاذ عسكر
 نحاس باللغة العربية كتابا سماه : تأملات ابن جحا : يحاكي فيه الأسلوب
 بالحكمة لدرجة ولدعائه اخلاكية ، ومن أمثاله قوله عن المرأة : إنها خلقت في
 الرجل لأانية لتحقيق مطالبها وأن المرأة وحدة تسحت عن سم ، ولكن
 امرأتين مع سخان عن مريسة ، وأن الرجل الشرير في عين المرأة الخائنة هو
 السمكة التي ترفض انظمه ، و أن المرأة تعدل رجلها عقدا له على أنها شيء
 لا عني عنه شيء

وسينما نجحنا بعد أنه هذا حفة وأبناء حفة ، ولا نطلبهم جميعا قالوا - بعد -
 كلمتهم 'أحد' باللغة العربية ، أو التركية ، أو سائر اللغات ، فإنهم خالدين
 بخلود النفس 'شوية' بين كل قبيل

وكرامة للمقام ، ويضئ هنا وهناك ليشهر
 بالفضائل وتشمس لها أسبابا من الهباء
 من الأرض والسما ، ومثال هذه المبادئ التي
 نحاس اسوقوا حقا على ناب مدينة ليمند
 فيها ، فلما قال للمكاسين أنه لا يقصدهم
 بالعربية ضمغين : إحداهما للعمل الريح
 لأن من يتجرع قوم برورمه ستر مرء

على بواذر حقا لأبها وافقت عندهم غادج من
 ساقون حكاياتها المصححة أو الموضوع ، وروا
 إلى الغرب بالقتل والرواية الشعبية ولاطلاع
 ترجمتها ، ولا يسمد أن يكون كثير من هذه
 حيرة ملاقة الذين يتعمنون في لسمهم
 شخصية حقا تسمى عندهم جهان ، وهو
 الأسماء لعربية التي ينسب بها أبناء تلك
 باللغة الإيطالية فلا تعاله من قبيل هذا
 لأن مادة جوكا ، يعني التراج والصمات
 السكسونية ، ومنها كلمة الجوكا
 من عمل ليوناردو دافنشي الفنان

صالت في العرب ثمة شخصية : جحا ، في
 قصة تارة أخرى ، ولا تسمى في هذه الحالة
 إلى يومنا هذا عروبا لصحفه سيارة باسم
 punchinello من مقاي التمثيل الصامت
 معروف عندما مصدق الدمى والألاعب
 إلى أصلها القديم فمن الشائع في
 مصحف من اسم مخرج سحيف يسمى
 ، ويرى في القرون الوسطى ثم تحووا اسمه
 راحة والمشابهة في اللفظ مع الاحتزال

خلاصة تاريخية

والخلاصة من الناحية التاريخية - وهي أقل النواحي ثبوتا وأهمية في هذا البحث - أننا نستطيع أن نتقبل أبا الغصن جحا كما ذكره الميداني في أمثاله كأته شخصية تاريخية لا غرابة في وجودها ولا داعية لشك في إمكان وقوع النواذر المنسوبة إليها ، فإن الذين يشبهون أبا الغصن هذا في غفلته وسهواته يوجدون في كل بيئة ، وفي كل زمن ، وإن تنوعت المناسبات والأحوال التي تكشف للناس عما طبعوا عليه من الغفلة ..

ويلحق بأبي الغصن أناس على شاكلته لم يشتهروا مثل اشتهاره ولم يسمع بهم الأمراء والولاة كما سمعوا باسمه وخبره ، نيطلق الناس عليهم اسم جحا نيزا أو تشبيها أو تغليبا أو تفيهما بالحكاية النادرة التي تدل على علم بأخبار السلف إذا رويت عن مشهور متقدم ولا تدل على شيء من ذلك إذا رويت عن سكان البلد في ساعتهما الحاضرة ، ويعمل الوضع و « القفش » عملهما أثناء ذلك فيجتمع من النواذر الجحوية ما تصح نسبتا إلى شخصية قديمة أو حديثة وما تصح نسبته إلى أحد غير وضاعه ومخترعه من الرواة والمفكرين .

ونحن في عصرنا هذا قد شهدنا نشأة أمثال هذه الشهرة الصحيحة والمختصرة وشهدنا تطورها من مبدأها إلى مصيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة . وكان « الفضل » في ذلك للصحافة الأسبوعية المضحكة التي كانت تقوم في أوائل القرن العشرين على « القفش » والملحة المختصرة . ويعلم الكتاب والقراء المستمعون أنها تلقى يعتمد على أصل ضعيف . وأنها براعة في صناعة « القفش » ويتنافس فيها أولئك الصحفيون ، وهم ولا ريب خلفاء الندماء الذين كانوا يتولون هذه الصناعة في صدر الدولة الإسلامية وما يليه من العصور قبل نشأة الصحافة .

وأينا الأديب « إبراهيم الديب » يأكل في مأدبة فلم تلحظ عليه شيئا من النهم الذي اشتهر به بين المتشردين ، وسألنا صاحبا له فقال أنها أكلة واحدة أو أكلا قليلة بعد جوع أكسبته هذه الشهرة الباطلة . وأنت تعلم أنه كثير السخرية والاستهزاء بالأدعياء من محترفي الأدب والصحافة الذين يتزاحمون على مجالس الأغنياء . فانتهزوا « فرصة » هذا النهم الموقوت للقصاص والوقية وملأوا الصحف الأسبوعية « بالقفشات الدباغية » حتى أصبح « الديب » كلمة في اللغة الدارجة تطلق على النهم ، وقد ظلت هذه الكلمة تحمل معناها

١٠ شعار إلى يومنا هذا - وأصبحنا نسمع من يقول عن أحد من الناس أنه
« وهو لا يعرف أصلا لهذه التسمية .. »

١١ حكينا ما رأينا من الشيخ الديباغ وما سمعناه من صديقه لصاحب
١٢ لصحف الأسبوعية التي أولعت « بالقفش » له والتفريق عليه . فقال :
١٣ « صبح به فتدعوه إلى طعام » فلما يكف الرجل يده عن الأكل وهو مشتاق
١٤ « حتى كلامنا يعبر بأخضرين فيقعون في الشرك » ويندمون حيث
١٥ « ندم »

١٦ ونحن نذكر لصاحب الشهرة ومن شهره بها - أي القولين
١٧ « أي القفشات يعتمد على الواقع وأياها يستمد من الفكاهة والخيال .. »

١٨ « أشهر رجل آخر في تلك الأونة بالمبالغة في الادعاء - أي بالفش كـ
١٩ « في اللهجة البدائية - وكان حقا يدعى ويبالغ في دعواه ، وكان ظريفا
٢٠ « مختلص من المأذق إذا امتحن من يتعقبه بالنقد والسخرية ، وكان إلى
٢١ « على يسار طمع فيه طلاب الاشتراكات للصحف الأسبوعية في ذلك
٢٢ « ومثلت هذه الصحف بدعائه وبالدعوى المقيسة عليها مع التوسع
٢٣ « وأصبح اسمه كذلك علما على « الفشر » يكاد يلفي هذه الكلمة
٢٤ « متأصلة في الأقاليم والأقوال »

٢٥ « مرة في نشأة النادر الخجوة سواء صحت نسبتها أو لم يصح منها إلا

٢٦ « جاء في الكتب العربية من هذه « الجحويات » فلا غرابة في نشأته .
٢٧ « فيه من كل « إلا في التناقض بين الغفلة والتغافل في أخبار
٢٨ « حد . ولا سيما الأخبار التي تتحقق صفات صاحبها ويثبت أنه من
٢٩ « سلبيين الذين لا يحسون تدبير « التغافل » ولا تحي منهم الحكمة إلا
٣٠ « مفصولة في القابل من الأحياء »

٣١ « محمد خير الدين التركي

٣٢ « محمد التركي المسمى بالخجوة نصر الدين فبالنسب إليه بملا مشات
٣٣ « وجد أدينا كتابا بالتركية مطبوع في الاستانة بالحرف الدقيق (سنة
٣٤ « ١١١١ هـ) يقع في مائتي صفحة وخمسين وخمسين ولا يستعب كل ما نسب
٣٥ « لخجوة نصر الدين من نواذر الحكمة أو نواذر الغفلة والبلاهة .

٣٦ « الذين لاشك فيه أن كثيرا من هذه النواذر وضعت بالتركية ولم تنقل

٣٧ « عن العربية ، وأنها ترجع إلى شخص عاش في بلاد الترك ولم تكن نشأته على
٣٨ « الأقل في بلاد أخرى .

٣٩ « ويدعوننا إلى الجزم بذلك أن النواذر تشتمل على جناس يوجد في الألفاظ
٤٠ « التركية ولا يوجد في ألفاظ لغة أخرى ، كالجناس بين جل وكل في نادرة
٤١ « المسامير والخطوط مع لفظ الكاف كما تلفظ الجيم في بعض الكلمات ،
٤٢ « والجناس بين جمع أيوب وكلمة « ايوب » يعني حبل في نادرة يحذر فيها
٤٣ « الخجوة نصر الدين أبناء بلدته من الإفراط في تسمية أبنائهم باسم أيوب ، أو
٤٤ « كالجناس في الاصطلاح على تسمية المطر بالرحمة وقولهم عن نزول المطر أنه
٤٥ « رحمة نزلت « رحمة انبور » من عند الله .

٤٦ « ويدعوننا إلى الجزم بتأليف الترك لكثير من هذه النواذر أنها تذكر المدن
٤٧ « والأقاليم في آسيا الصغرى وما جاورها بخصائصها المشهورة إلى هذه الأيام ..
٤٨ « ويرجع لدينا أن نصر الدين شخصية تركية غير منقولة عن الأم الأخرى أنه
٤٩ « نشأ في آسيا الصغرى حيث تنتشر جماعات الدراويش الدنيين من قبل
٥٠ « الإسلام ، وحيث يعهد في أحاد من هؤلاء الدراويش أن يخلطوا خلط المجاذيب
٥١ « ويفتوا فتوى العلماء والفقهاء ، وأن يلوذوا بظاهر التخطيط أحيانا بغية السلامة
٥٢ « من بعض الحكام المخيرين على البلاد ، وقد يلوذ بهم عامة الناس إيمانا
٥٣ « بكراماتهم وشغافتهم ليدفعوا عنهم مظالم الطفلة ، فيحتالون على استرضاء
٥٤ « الظالم بالفكاهة أو بالوعظ المقبول أو بالتخطيط الذي ينالون به ما طلبوه من
٥٥ « الحكام إذا أضحكوه واستطاعوا في وقت واحد أن يلمسوا في نفسه موطن
٥٦ « التقوى والخوف من الله ومواطن الرضا والسرور .

٥٧ « والخجوة نصر الدين مشهور بكراماته وكرامات ضريحة في مقبرة « آق شهر »
٥٨ « بعد وفاته بزمان طويل ، ويذكر الناس أصحابه فيضحكون منها ولكنهم
٥٩ « يحيلونها إلى حالات أهل الجلب بين عالم الأسرار وعالم العيان ، أو يحيلونها
٦٠ « إلى حب التنية والاحتبال على الموعظة الحسنة بالأسلوب الذي يؤدي إلى مرماء
٦١ « ويعفيه من عيبه .

٦٢ « والشك الأكبر إنما يعرض لهذه السيرة من أطباق النواذر الكثيرة فيها على
٦٣ « اجتماع الخجوة نصر الدين بتيسور تلك أثناء غزوته لبلاد الروم ، والمشهور أن
٦٤ « الخجوة نصر الدين توفي سنة ٦٧٣ أو سنة ٦٨٣ هـ . فهو قد توفي قبل
٦٥ « مولد تيمورلنك بأكثر من نصف قرن ، ولا يمثل أنه رآه وحضر مجالسه إلا إذا
٦٦ « كانت وفاته حوالي سنة (١٤٠٥) التي توفي فيها تيمور .

فمنذ القرن السادس للهجرة (والثاني عشر للميلاد) هيبت المروعة من ذروة الكرامة وأصبح المعارف الأريب من يحتال على زقه بالجنون والملازمة والتحامق والتشبيه بالجهلاء وأصحاب الجلود من ضحائف المقول ، وشاع القول : و بقرقة الأدب ، مقنية عن القول بؤس المعلم الأديب .

في أوائل هذا العهد ظهرت مقامات المبريزى التى يجمع بطلها بين البرؤس والبلاغة والبراعة فى الحيلة ، وفيها تواتر النظم فى شكوى الزمان مقرونة بشكوى الأديب والمعجب من قسمة الأرزاق ، وهذه هى الناحية الأدبية من تلك الشكايات وتلك الحيل والإبتذالية أو الغفية ، وأما الناحية الاجتماعية العامة فأنها هذه التواردات التى تمدد بالثبات ولا تظهر فيها براعة السبب الأريب إلا فى الاحتيال على أكله أو فى الاحتيال على دفع المحتالين للطامعين فى قوته الهزبل .

• • • • •
وبين قصص جمحا قصة عن تقسيم الأرزاق يسأل فيها جمحا من نذيره للقسمة هل يريدون قسمة الله أو قسمة العبيد . فلما حكموه فى توزيع الحظوظ بينهم على قسمة الله أعطى هذا ما لم يعط ذلك وفازت بينهم أكبر المفاوزة فى الأقسام ، وما كانت هذه التواردات لتشتيع بين العامة من رزاة والجحوريات ، لو لم تكن لها مصاردها التواراة من بعيد .

على أن التوارد ، والطعامية ، تنم على وجه خاص عن سداجة فى الحيلة ترجع نسبتها إلى طوائف المحرومين من الجهلاء الذين يتأسون بذوى المعرفة والنقى ولا تسعفهم القدرة على الاختراع . فغاية جهدهم هذا الذى ابتدعوه وأحبوا تعظيمه وتحقيق الأسوة فيه ينسبته إلى المحارفين ، وجاءت هذه التوارد الطعامية مجاوزة للمقامات الإنسانية وللقصائد المنظومة فى شكوى الزمان والمعجب من قسمة الأرزاق ، ولم يعرف هذا كله فى عصر من عصور الشرق كما عرف بعد القرن السادس للهجرة ، وبعد إبداء الدولة العباسية ، واحتياج تيمور لنك للمعلم الشرقي من تخوم الصين إلى شواطئ بلاد الروم .

• • • • •
ونودع الآن جمحا والجمحيات ونحن نحمد للمضاحك المضحك ، أنه أهاز اسمه عامدا وغير عامد لباب من الدرامسة النغسانية والاجتماعية لم يكن ميسورا لنا بغيره ، ولئن بيخسه شيئا من الحمد أن يكون على وفاق مع التاريخ أو على التناق من كل تاريخ .

ولا يسهل التوفيق بين هذه الروايات إلا على فرض من فرضين : أحدهما خطأ المتأخرين فى تعيين السنة التى توفى فيها الخوجة نصر الدين ، والثانى أن تيمور لنك لقي شيئا آخر على شاكاة الخوجة نصر الدين فتدأخلت الروايات وعقلت البقية لابقية منها بالأسم المشهور .

وأيا كان صواب النسبة فى بعض التواردات التى تحتل الخلاف فهناك جملة من التوارد لا اختلاف فى وضعها بعد عصر تيمور لنك وبعد العصر القروص للخوجة نصر الدين . وهى التواردات التى ولدت فيها الإشارة إلى اختصرحات الحديشة كالتبديقية وساعة الجيب ، أو كالتواردات التى تكذبها وقائع التاريخ العثماني وتاريخ أسيا الصغرى على الخصوص .

• • • • •
ومن الواجب أن نسلم - بناءة - بوضع العدد الأكبر من التواردات الشريكة أو نقلها من رزاة الأمم الأخرى ، لأن حصولها كلها من رجل واحد أمر لا يسهله العقل ولا يورى له نظير فى السوابق التاريخية ، فلو أن هذا الرجل عاش ليشخلق تلك التواردات وعاش الناس معه ليسجلوها لا اجتمع من أمساحيك تلك المئات التى خلا الجملدات ، ولا استطاع أن يأتى بما فيها من لغتافس العقلية والحقيقية . فضلا عن تغافس الجغرافيا والتاريخ .

فوضع العدد الأكبر من التواردات أمر مغرور منه لا يجوز أن يحتج به الختج على بطلانها واختلافها من أصولها ، وبطل هذه التوارد الموضوعية أصبح فى الدلالة على أزمستها وبنائها من وقائع السجلات والأرقام .

قبل أن بين الجليل الرويب والمضحك للغرب قيد شعرة أو لغة عين . ولا شك فى هذه الحقيقة من الوجهة النفسية كما تقدم ، لأن الهول يتحول فجأة إلى الفضح بظاريه من طوارئ التغيير والتبديل التى تتعاقب فى أيام النصر والهزيمة والقيام والسقوط بين الجبابرة وأصحاب الدولات .

• • • • •
ولا شك فى هذه الحقيقة - أيضا - من الوجهة التاريخية إذا رجعنا إلى عصر تيمور لنك وأشباهه فى تواريخ الشرق والغرب ، فليس أحفل بالاضاحيك من عصور القلعب وعصور الشدائد والأحوال .
وظاهرة أخرى من الظواهر الناطقة فى التواردات الموضوعية تبيننا عن زمانها الذى قست فيه وشاع اختراعها بين جميع الطبقات .

من مؤلفات عملاق الأدب العربي الكبير عبد بن مسمود المصفاة

٣١ - الفتاة العربية	٣٧ - اللغة الشاعرة
٣٨ - شعراء مصر وبناتهم	٣٩ - إشارات مجتمعات
٤٠ - حياة قلم	٤١ - خلاصة اليومية والشذور
٤٢ - ملعب قوى السمات	٤٣ - لا شريعة ولا استعمار
٤٤ - الشيوعية والإنسانية	٤٥ - الصهيونية العالية
٤٦ - أسرار	٤٧ - أنا
٤٨ - عبقريه الصديق	٤٩ - المديقة بنت الصديق
٥٠ - الإسلام والمصفاة الإنسانية	٥١ - جميع الأحياء
٥٢ - الحكيم المطلق	٥٣ - يوميات جزء أول
٥٤ - يوميات جزء ثاني	٥٥ - عالم السدود والقيود
٥٦ - مع عامل الجزيرة العربية	٥٧ - مراقف وقضايا في الأدب والسياسة
٥٨ - دراسات في المذهب الأدبية والاجتماعية	٥٩ - آراء في الأدب والفنون
٦٠ - يهود في اللغة والأدب	٦١ - خواطر في الفن والقصة
٦٢ - دين وفن، فلسفة	٦٣ - فنون وشجون
٦٤ - قيم ومعايير	٦٥ - ديوان في الأدب والتقدم
٦٦ - عبد القلم	٦٧ - ريدود وحيدود

١ - الله	٢ - إبراهيم أبو الأبياء
٣ - مطلع النور أو طوطم الجنة الضميمة	٤ - عبقريه محمد ﷺ
٥ - عبقريه مصر	٦ - عبقريه الإمام علي بن أبي طالب
٧ - عبقريه خالد	٨ - حياة المسيح
٩ - ذو النورين عثمان بن عفان	١٠ - عمرو بن الماص
١١ - سارية بن أبي سفيان	١٢ - داعي لسماء بلال بن رباح
١٣ - أبو شهيداء، الحسين بن علي	١٤ - فاطمة الزهراء والمطاطير
١٥ - هذه النجدة	١٦ - إبليس
١٧ - جحا الضحك الضحك	١٨ - أبو بواس
١٩ - الإنسان في القرآن	٢٠ - المرأة في القرآن
٢١ - عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده	٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة
٢٣ - روح عظيم المهاتما غاندي	٢٤ - عبد الرحمن الكواكبي
٢٥ - رجعة أبي الملاء	٢٦ - رجال عرفهم
٢٧ - سارة	٢٨ - الإسلام دعوة عالمية
٢٩ - الإسلام في القرن العشرين	٣٠ - ما يقابل من الإسلام
٣١ - حقائق الإسلام وأبطال قصوده	٣٢ - التفكير فريضة إسلامية
٣٣ - المأساة القرآنية	٣٤ - المديونية في الإسلام
٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية	

فهرس

٢	الكلمة والفصحى
٢١	لماذا نفصحك؟
٤٣	ثلاثة آراء في الفصحى
٥٩	الفصحى في الكتب الدينية
٦٧	الإنسانية والفصحى
٨٥	جحا ٠٠ ونواديه
٩٣	٩٠ نادرة
١١١	موازن غير محكمة
١١٥	جحا في الأدب
١٢١	خلاصة تاريخية